حسن إمامي

أوراق التوت المتساقطة

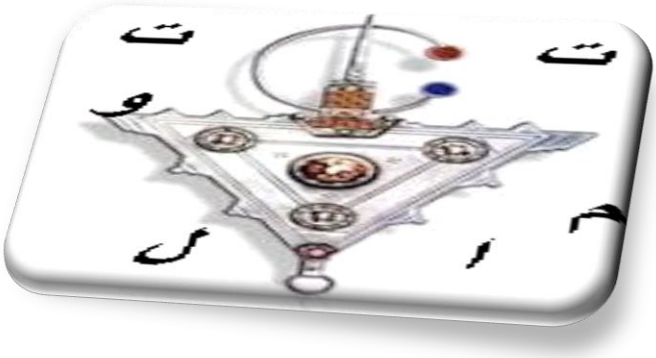

رواية

إصدار رقمي – نشت 2023

ت
ت
و
م
ر
ا

لا يتذكر السيد (حوسا) متى نشأت هذه المدينة. موقعها الجغرافي الغني بمنابع المياه، وهذا السفح الذي ينحدر اتساعا حتى ضفاف وادي أم الربيع. وطبعا ليست هي المدينة الوحيدة التي أنعم الله عليها بالخضرة والطبيعة الخلابة، فقط ما كان من عين تايدة التي تسحر كل زائر مثلما تسحر ساكنتها. عين تسقي شرايين المدينة بسواقي وقنوات تعطيها البهاء مثلما تعطيها الوظيفة المناسبة في السقي والطهارة والحياة. (وجعلنا من الماء كل شيء حي). يتذكر الآية ويتذكر نعمة الماء.

لكن هذا التذكر يتلاشى سرابا في حرب الذاكرة مع النسيان، ومع الواقع. تُرى، كيف هي عائلته الآن، وقد تباعد الزمن بين آخر زيارة قام بها للبلدة وزمن الاعتقال والأسر؟ وضعية العسكري المعتقل تكون أكثر صعوبة بين الأعمال الشاقة وأشكال التعذيب والنجاة من كل احتمال اغتيال مباشر أو غادر.

بالكاد خرج من تلك الحفرة التي آوته كمخلوق غريب ومعذب. لا يملك داخلها إلا فوهة سماء والتراب والغبار الذي تذره الرياح أو أقدام العسكريين الحارسين للمخيم. لا تتنعم عليه لغتهم وخطابهم سوى ببعض كلمات أو عبارات. ولو أنها تكون سبا وشتما إلا أنها تدل على خيط حياة وتواصل داخلها وفيها.

لا حرية في الأفق إذن. تُرى، كيف هو حال الطفلة الصغيرة التي تركها رضيعة بين أحضان زوجته قبل أن يعود للأقاليم الجنوبية ولمهام مواجهات مفاجئة مع جماعات مدربة على الهجمات العصابية والتصفيات القاتلة. قد يسمع عن بشاعة تصفياتهم وذبحهم لرؤوس كل من يقع تحت قبضة أيديهم وقدر سكاكينهم الحادة التي يوثرون بها نحر أعدائهم. لكنه يستغرب لسر الإبقاء عليهم أحياء، هو وجماعة الجنود الذين أسروا معه في ليلة غادرة من داخل معسكرهم الذي بدا أنه كان محروسا. لكن ما بدا لم يدل على ما وقع فعلا. رغم أنه لا يعلم ما وقع فعلا !

كانت أول مرة يتخذ فيها عسكر هذا المخيم الصحراوي دائرة تحت أشعة الشمس اللاهبة ويحفرون فيها حفرا عمودية بعمق الثلاثة أمتار ويجعلون فوقها أسيجة حديدية ثقيلة. لم تكن لرمي التماسيح فيها ولا الحيوانات الضارية والفتاكة. كانت لهؤلاء الأسرى الذين اختارت القيادة السياسية للمعسكر في أن تجعلهم ورقة للتفاوض السياسي لما سيأتي من محطات. ولم يكن السيد

(حوسا) يأمل في حياة جديدة. ينتظر ساعة حتفه وإعدامه. يتسلّح بدعائه ومناجاته لربه. يأمل في أن تكون أسرته بخير، سالمة وبعيدة عن كل الشرور التي يلاقيها هو هنا.

زوجةٌ ما تزال في ثلاثينيات عمرها، وبنتان إحداهما سيكون عمرها الآن ست سنوات وبضعة أشهر، والأخرى تكبرها بست موازية، وبينهما ابن ذكر. يشعر بحرمانه مثلما يشعر بحرمانهم. لكنه يتمنى أن يكونوا قد استفادوا من معاشه ومكافأة استشهاده ما دام معتبَرا مقتولا وميتا وليس حيّا في معتقلات الذل التي يعيش فيها. وقد أفرغ من كل قيمة الآن. عقله خاوٍ من كل حسرة أو ندم أو تحليل. يوميُّه مرتبط بإشباع ونجاة من سوط أو ركل. أما السبّ فتلك وجبة مألوفة تخترق كل أذن لتتلقاها الأخرى هروبا من دلالات ألفاظها.

قد يحن إلى جلسة المقهى ولعب الورق (الكارطة والرونضا) أو لعب (الضاما). متاهات لعب أحلى تشعره بسعادة الحنين إليها. لا يطلب شيئا أغلى، فقط عائلته وجلسة مقهاه. لا يطلب زيا عسكريا، ولا انتقاما مما عاناه. ها هو اليوم أصبح أسيرا بل عبدا يساق بالسلاسل ويرخّص له في التحرر منها كلما كلّف بمهمة عمل شاق جديد. بين التعب والراحة أصبحت هذه القيود جزءا من ذاته. قد يحن في العودة لها كلما تعب من تعبيد طريق رملي وحجري في درجة حرارة قاسية وحامية. وقد يحن للعمل الشاق كلما ارتاح واحتاج لحركة أطرافه وجهد بدنه الذي يضخ فيه دما جديدا تسعفه الوجبات الرديئة في

اعتصار ما قد يسمى فيتامينات أو كالوريهات بحسب قاموس التكوين العسكري الذي رسّخ مثل هذه المصطلحات في مسامعه.

يشق السحاب الذي قد يتشكل في السماء، والذي يعبرها كأجنبي متنكر لما هو واقع أسفل في هذا الدرك الأسفل من الأرض. يخترقه بالأمل وبالزرقة التي تصبح جميلة بين رذاذه وبخاره. يقارن بين فضاء بلدته ومنبع مائها وخضرتها وعيونها الكثيرة وغاباتها المتفرقة بين الجبال ونهرها الذي حمل أصوات النداء بتماوايت بين الزمن والأمكنة الممتدة في سلسلة جبال الأطلس وفي مجرى وادي أم الربيع ومصبه بالقرب من مدينة أزمور، وبين فضاء هذا المعسكر والمعتقل الذي يعيش فيه. قد يدرك الفرق بين الجنة والنار، ويحمد الله على أنه لو كُتِب له الموت في هذه الوضعية سيكون جزاؤه جنة خالدا فيها. لكنه يتمنى لو أنه ينعم بجنة أرضية أولا قبل الآخرة. جنة بلدته ونعيمها برمانها الأحمر الطري وعنبها البلدي وفواكها الدانية، وأهازيج طربها ورقصها وغنائها، وجنة أسرته وزوجته وأولاده.

. ياه !

هي حرقة أحدثت مفعولها وحققته في أمعائه ومعدته. يتلوى كمصاب بصرع وجنون من شدة الألم، فيرمى في حفرته التي تحتضنه كرحم جهنمي كُتِب له في الدنيا قبل حلم الآخرة المرجو عند ربه. ولم يترك لنفسه فرصة التخفيف، بل

وجد ذاته يحاسبها على الذنوب والمعاصي التي يكون قد ارتكبها منذ أصبح بالغا إلى أيامه هذه التي تشهد على نيل عقابه الأقصى.

كان توقيت مرضه وقرحته موافقا لتوقيت زيارة لجنة أممية ستطّلع على وضع المقيمين بالمخيم والأسرى الموجودين فيه. سبقت اللجنةَ بعثةٌ طبية كلفتها الدولة المحتضنة للجبهة العسكرية المقاتلة. سيق إلى أقرب مستشفى وخضع للعناية الطبية المركزة. كانت حاله ميؤوسا منها. سرطان في الأمعاء وتمزق أحشاء. تلف في الإثني عشر، وتهديد بقطع ألياف وجفاف في الخلية المنتجة للمخاط...

كانت رحلته إلى العاصمة لكي يرسل إلى دولة أوربية فيكون أول مفرج عنه ضمن صفقات سياسية في هذا الصراع القائم حول الأرض وخيراتها، والذي وجد ضحيته الجل ممن يعيش في هذا المعتقل. حتى المسمى لاجئا أو لاجئة فقد اكتشفا على أنهما سيقا بدون فهم لما يجري، بدون اختيار حر. ولو كانا يعلمان ما وقع وسيقع، فهل كانا سيختاران الانخراط هما معا في هذه الحرب وهذا الأسر الناتج عنها؟

مات العديد من الجنود الذين صاحبوه وفقد آخرون في الصحراء، وبقي اسمه ضمن لائحة من عشرة، وكأنهم العشرة المبشرون بالجنة. وفعلا، فقد عاد لجنته ومنبع مائها: تايدة.

لم يختر توقيت عودته، لكن القدر هو الذي اختار ذلك. لم يعلم بأنه في حكم الموتى في سجل ثكنته وفيلقه، ولا في وسطه العائلي والاجتماعي. إحدى عشر سنة مرت على الأسر، الغياب العدمي الذي اعتبره ميتا. عليه الآن أن يعيد الاعتراف بذاته وشخصه قانونيا واجتماعيا وعاطفيا. أن يصالح الحياة ونعيمها بعد أن جفت آماله وفقد روحها. عليه كذلك أن يستعين بتجربة ووضعية أولئك الذين أقيمت لهم جنازة فغُسّلوا وكُفِّنوا وحملوا تشييعا إلى قبورهم التي وضعوا فوقها ألواحا حجرية أو إسمنتية، ودفنوا تحت التراب، وبعد حين ابنلجوا من تحت الانقاض أحياء. ولما عادوا قد يكون المجتمع والأهل هم الذين صدموا، دون أن يدرك هؤلاء صدمة الذي قد عانى من الدفن وهو حي. منهم من رفضه أهله، ذكرا كان أو أنثى. ومنهم من فقد القدرة على الكلام إلى يومه هذا الذي عاد فيه السيد حوسا العسكري. هذا الذي ضحى من أجل الوطن، ومن أجل راية الوطن، فكان معتبرا ميتا قبل أن نتتشله المفاوضات السياسية من حفرته ومن عدمه وتعيد له الوجود الرحيم، ما دام يعاني من مرض سيلقي به إلى الموت المادي الحقيقي بعد أشهر، كما أخبره الأطباء بذلك.

كان رجوعه موازيا لتوقيت الحملة الانتخابية التي يعرف بعض أشخاصها الذين لهم سبْق بالنفوذ فيها وبها. كيف لا، وهم أعيان البلدة وإقطاعيوها الذي

يمتلكون أكثر من ثلثي خيراتها. في حين يبقى الثلث الآخر لباقي الساكنة، وكأنه ثلث الأيتام في قسمة النعم.

كان السيد مصطفى الكرامي أول المهنئين له بالعودة، والمباركين له نجاته من جحيم الأسر في مخيمات العدو. مصطفى الكرامي، رئيس الجماعة القروية منذ سنة 1976. بقي في كرسي رئاسته لمدة طويلة إلا ما كان من أربع سنوات خلال ثمانينيات القرن العشرين. سرعان ما استعاد منصبه من جديد وبقوة حضور ونفوذ. رجوع توارى منافسوه خلاله وتركوا له مجال توسيع سلطته ومصالحه وممتلكاته. منذ مدة والجميع يسميه: المرشح ـ الرايس، أو الرئيس بحسب مقام اللغة والتعبير.

ها وقد جاءت انتخابات جديدة، ووقف المرشح ـ الرئيس فوق المنصة خلال حملتها، بعيون غائرة في غياهب الذاكرة التي سيستعين بها في لفظ الكلام، في هذا اليوم المشهود، والذي يحتاج منه كسب أوراقه العديدة التي باتت مصالح متنوعة وكثيرة.

استعان باستنشاق عطره المسجل بماركة باريسية رفيعة وعريقة، جلبتها له زوجة أخيه الفرنسية هدية، حتى يتغلب على الروائح الغريبة التي فرضتها عليه هذه الوقفة، وسط هذه الحشود التي استطاع أتباعه جمْعها ولمها. حاجته لكسب تحدي الروائح أكبر من حاجته لما سيصدر عنه من كلام.

شباب متعرقون بالجري والصياح بين الدروب والأزقة، وقد اكتسبوا مساواة في العلاقة مع المرشح ـ الرئيس، ورفعة في المكانة، على الأقل خلال هذه الحملة الانتخابية. منهم من يطمع في عمل بالبلدية، ومنهم من يأخذ مقابلا ماديا يوميا، ومنهم من له ولاء عائلي يربط مصالح أسرته مع مصالح عائلة المرشح ـ الرئيس الغنية والكبيرة النفوذ داخل المجتمع ومع السلطة وبين مكاتب الإدارات والعاصمة والوزارات...

وحيث إن المرشَّح يتكلف بواجب الحملة الانتخابية متحملا ردّ السلام والعناق، وحيث إن السلام يكون بالحضن والشفاه اللاصقة على الخدود، كان كل مرة يشعر بتبلل خديه، يتقزز داخليا دون قدرة على تفجير غيضه كمن يحتاج إلى غثيان ولا يستطيعه، كمن انقبضت أنفاسه ولا يبوح بضيقه. بالكاد تتحمل أنفاسه سيجاره البني الغليظ وبقايا كؤوس الويسكي المتصاعدة من الأحشاء، والتي لا تفارق الذات ولا تنتصر فيها هذه على تلك إلا بدرجات الانتشاء، ولو كانت مع تدمير خلايا وأعضاء الذات كالكبد.

يحتمي بمناديله الورقية التي جعلها علبا بالعشرات في سيارته، وكذلك بمدِّ وإعطاء صدغيه وجِهة أعلى رأسه المغطى بقبعته حين كل سلام، في ملامسة وجوه، ما أمكن. هكذا انتصر على بلل الشفاه المقبِّلة بكسب سلام يجعل الكل يقبل رأسه أكثر من خديه.

رغم تقدمه في السن ما تزال وجنتاه متوردتين، وعيناه بارزتين في سديم رطب ونظرة ثابتة وممتلكة لما ترى. بدلته السوداء ومعطفه الناعم، وشالُه المستلقي بلون شفاف لا تجد له مثيلا بين انعكاسات الألوان الداكنة في الحمرة أو الصفرة أو الشاحبة أو المغبرة، بين هذه الأجساد المحتشدة أمامه. يحمد الله على أنه يبتعد عنها طيلة سنوات كل ولاية من رئاسته، لا يرى من أصحابها فيها سوى من اضطر لاستخدامه أو نهره أو تسخيره... تهدل جفنيه وغبغبه الذي استرخى وهده الزمن فجعله يتكئ على صدره حين كل تعب وغفوة وسهو مرافق لها، يقارنها كملاحظات في وجه السيد حوسا العسكري حين زيارته له. زيارة لم يألفها مادام لا يذهب لبيوت الناس سوى ما كان من أعيانهم وعلّيهم. زيارة اضطرارية فرضتها الحملة الانتخابية، لكنها جعلت له مرآة واقعية لمآل يمكن للجسد أن يصبح فيه. مآلٌ إذا لم يكن بفعل الاعتقال والأسر فسيكون بفعل هذا الإدمان اللعين: سيجارة المارلبورو، وسيجاره الكوبي التلفيف والتربة والذي يحمله داخل علبته في سيارته، ذي نكهة النعناع صيفا، والكاكاو شتاء، وأشياء أخرى...

استعان بوضع كفه الأيمن على شاله، وبلمسةٍ على مقدمة قبعته (البيرية)، نازعا نظارتيه السوداوين من نوع (راي بان)، بهدوء تام وتأن وسط زوبعة ضجيج وتطبيل وأهازيج أصمّت أذنيه. جعل الأفواه تتعطش لهذه الحركات الثابتة والصادرة عن المرشح ـ الرئيس.

بإشارة يد، أُبعدت الفرس التي أحضرت من ضيعته القريبة من هذه المدينة الصغيرة، والممتدة حتى ضفاف النهر الكبير الذي يمرّ مخترقا هضبة تادلة. هذا النهر الذي يشكل ذاكرة وتراثا وحياة من منبعه (منابع أم الربيع) إلى مصبه المستتر على التاريخ أمام أعين مدينة أزمور. أزمور التي لم تقبل للزمن توقفا، ولا للعابرين رسوًّا، فكانت اصطدامات التاريخ بحركة الأمواج المتلاطمة بالصخور. مدينة يعمها الفقر، ولا مساحيقَ قد تكفي لتزيين وجهها، مدينة يعمها الجهل فلا مصابيح قد تكون كافية لتنويرها. كذلك حال مدينتنا التي رست على بعد كيلومترات قليلة جدا من ضفاف هذا النهر العظيم الذي يشهد على تفاوتِ استفادةٍ من خيرات هذه البلاد.

أصبحت الفرس بمسافة عن المنصة، فوق ربوة صغيرة، مربوطة إلى شجرة ميموزا. مزهوة بأناقتها وشبعها ودلالها. تراها العين فتغار من لونها المازج بين بياض وحمرة شفافة. لون نادر بين الخيول يجعلها عملة نادرة كذلك في ربوع المملكة. تبدو للجماهير الواقفة متميزة عن كل مشهد آخر، حتى إن المتابَعةَ قد يوزعها البعض بين المنصة وحركات هذه الفرس اللعوب.

نحنح ونحنح. أخرج هاتفه النقال، أجاب وأمر. جلّ الساكنة، ومنها الحاضرة، ضعيفة التكوين والتعليم. جاهلة بلغته المتعلمة وبثقافته التي لا تعترف إلا بالعلاقات العليا ومع العلية ومع (أولاد عيسى) المتحررين من فقر هذه العقول

وشح جيوبها. عكست حركة يده الفعليْن معا، ثم عاد لوقفةٍ مستقيمة فوق المنصة ونظراتٍ تتخذ من الأفق فوق الحشود مدًى لتطلعاته العميقة والكبيرة.

وقف كجبل لا تهدّه رياح التعرية، ولو اجتثت جذور أشجاره المغطية لهيكله. استعان بخدمه في الحملة الانتخابية وبالأُسَر الموالية له ولعائلته وعشيرته. ومن أجل كسب مزيد من الصمت والهدوء التفت إلى نساء قائمات بجانب المنصة، صعدن بزغاريدهن إليها. أحَطْنَه بتمسح وتقبيل كتف. كانت من بينهن من تربّعت على عرش عشقه وغرامياته، أيام شبابها الذي ذبل بسرعة، لكن حروف والجمال ما تزال قائمة، كما الاستفادة من نعم الرايس وكرمه وحنينه لمواويلها في الغناء. والولاء للفقر ولاء للسيد كذلك.

بدأ كلامه وخطبته:

. تعلمون لماذا أحضرت هذه النسوة اليوم؟ لأبين لكم بأن رزق البلاد ببركتهن. أنا هنا لحماية الضعفاء والمساكين والأرامل الفقيرات. ترون أن كل من قرأ ودرس ونال وظيفة يذهب إلى المدينة الكبيرة ويعيش فيها، لا يأتي إلا في العطلة والأعياد... هيه... من سيحرس المدينة الصغيرة ويسهر على أحوالها وناسها؟ طبعا من هو قائم فيها ومستقر بينكم ومعكم فيها. أولئك الخصوم والأعداء، الذين درسوا بعض الأفكار الأجنبية وأرادوا تطبيقها علينا في هذه البلاد، البلاد لا تحتاج لهم. أنا هنا لأبين لكم بأن النساء والأرامل والمطلقات

تحت حمايتي... أتتذكرون ذلك النهار الذي أتى فيه القائد، وأغلق دوركم، وأضعف رزقكم، حتى لم يعد من يشتري لحما ولا فاكهة ولا يركب طاكسي؟ تتذكرون؟ من وقف في وجه القائد، وذهب عند العامل، وأعاد حرية العيش هنا. هل أنتم متذكرون؟ نعم أم لا؟

تتعالى الزغاريد، والصيحات: "عاش الرايس. هيييييييي، عاش، الرايس هييي..."

. لا القايد ولا العامل، لا أحد يستطيع التقرب من هؤلاء النسوة ما دمت أنا القائم على شؤون البلاد. بالأمس زرت شخصا بطلا. جنديا دافع عن الوطن وضحى بسنوات عمره من أجلنا. لم يتذكره أحد من قبل. أين كانوا حينما كانت أسرته معرضة للنسيان والحرمان؟ الحمد لله على سلامته. وأنا من الآن أعلن نفسي مسؤولا عن حال هذا البطل ومكلفا بكل ما يحتاجه هو وأسرته. وأقولها لكم رغم أن أجرها عند الله تعالى: سأبعثه إلى الحج في الديار المقدسة.

يسود صمت وجِل وكبير، وتسمع همهمات وتتعالى تصفيقات مرافقة لتكبير: الله أكبر. يستغل الشباب المشهد فيحولون التكبير إلى تلبية دعاء الحج: الله أكبر. الله أكبر. لبيك اللهم لبيك...

تصاعدت التصفيقات والزغاريد... صاحت إحداهن نازعة الميكروفون من يد المرشح . الرئيس، الذي انساب لرغبتها في لحظة مشهد لا يتكرر يوميا:

. آها الحق آ عباد الله... آها الحق آعباد الله. زغردوا معي: عاش مول النصر... عاش الكرامي حامي البلاد ومْعيَّشْ معه الجوادْ... عاش الرايس !

هي فرصة الطبالة والغياطة. حرَكة وحرْكة... رقَص الشباب. اصطفت النسوة فوق المنصة بلباسهن الاحتفالي المزين بالموزون من الصقلي اللامع بألوان مثيرة صفراء وحمراء وبيضاء، وتعالت أهازيج شعبية تراثية احتفالية... بدأت الأكتاف في ارتجاج إيقاعي مواكب، تلاصقت بعضها بالأذرع مع البعض الآخر، تلاحم الكل في الرقصة الجماعية (أحيدوس).

تأخذ أصغرهن وأجملهن الميكروفون. وتقف بغنجها الأنثوي ونظرتها الفاتنة وحركة جسدها الرشيقة. تطرب برنة صوتها الناعم في نداء أمازيغي جبلي عميق الجذب للأرواح الماثلة أمام المنصة، وتسأل:

. تريد المال؟

تشير الأخريات:

. ها هو... في إشارة إلى الرايس.

. تريد الزين؟

. ها هو... في إشارتهن إلى (يزّة)، اسم المغنية الصغيرة السن التي تخاطبهن على الميكروفون.

. تريد الهْنا (الهناء)؟

. الذي يُصوّت على الكرامي، صوّتْ علينا. الذي يصوت على الكرامي، يصوّت علينا...

حتى الفرس حرّكتها الأهازيج الاحتفالية والزغردات المرافقة. صهلت محركة ذيلها وعرفها المنسدل. تحولت معها الأجسام المنتشرة في الساحة إلى محركات غرائز لا يضبط إيقاعها إلا هذا الرقص الذي أريد له اليوم أن يكون انتخابيا.

مشهد أخاذ بين تمايل ناصية الفرس مع تحريك حافرها الأمامي وصلصلة لجامها، ومع تمايل الراقصات فوق المنصة يوقع سحره وأثره في حنين إلى كل امتلاك وكل غريزة. فالفرس رمز القوة والراقصات رمز النعمة، وكلاهما رمزان متكاملان في العيش بين أفراد القبيلة الواحدة وهذه المدينة الصغيرة. كلاهما حلم كل الفاتحين والغزاة والمنتصرين، رمز تلبية الغرائز الكبيرة والصغيرة.

يعود المرشح . الرئيس لواجهة المنصة. يلوح بيده للجمع الذي يتراجع عن أصواته كموج تهادى في جَزْرٍ من مدٍّ وهدير.

. أنا أريد أن أعلَم شيئا. هل هؤلاء المرشحون الذين يريدون البلدية ليس عندهم شغل؟ يكفيهم تعليم التلاميذ في المدارس والأقسام وعدم التغيب. هل يريدون

تسديد قروضهم على حساب المدينة. ليؤدوا قروضهم أولا لأصحاب الحوانيت الذين ملؤوا الكارنيات بالكريدي ديالهم... ههه...

تتصاعد قهقهاته الساخرة من الصورة التي رسمها للمرشحين الذين هم في غالبيتهم من الأطر الإدارية الصغيرة والأسرة التعليمية. يعلم كنز النكت التي تتداول حولهم وحول ظروفهم والسخرية التي تحيط كنار حول هشيم أحوالهم المادية.

تتصاعد الضحكات...

. أنا أعمل بدون راتب. رزقي تعرفونه... الحمد لله، أنا لا أطمع في فلوس الطحين والإسمنت. أنا أردت الناس أن يشبعوا في بطونهم، ويسكنوا منازل جيدة. هذا هو هدفي أنا.

بصوت عال رَجّعه الصدى واخترق صفاء البوق والميكروفون، يردّد الجملتين الأخيرتين (بغيت الناس يشبعوا في كروشهم و يسكنوا مزيان).

تتعالى الأصوات والشعارات والأهازيج من جديد. يتركهم في رقصهم وطربهم، يلقي التحية برفع يده إلى الأعلى ثم يمررها على صدره وينسحب من المنصة في هدوء متوجها إلى ضيعته. يفتح السائق الباب ويُقبّل يد ورأس المرشح . الرئيس.

الناطق الرسمي باسمه ينادي الجمهور:

. يقول لكم سيدي الرايس، العشاء في باب الضيعة. الثور راه مذبوح والشيخات[1] كلهن سيحضرن. عاش الرايس.

تترد الكلمة الخالدة:

. عاااااااااااش !!

[1] المراد بهن الفنانات اللاتي تؤدين طربا ورقصا شعبيا.

في المساء، وقبل أن تبدأ الحفلة الليلية وسمرها وسهرها، ذكّره مستشاره في الانتخابات بضرورة مكالمة هاتفية مع القائد العسكري المسؤول على الشؤون الاجتماعية وعلى وضعية أسرى الحرب. ضرورة طلب تكلفة حج على حساب الإدارة العسكرية للسيد حوسا المعتقل السابق في معسكرات الجبهة الصحراوية. وكانت المكالمة وكانت مباركة المتلقي على طيبوبة السيد الرايس وكرمه وعطفه على أهل بلدته وساكنتها.

خبر اندهش له الناس حين سماعهم بأن السيد حوسا وزوجته قد تم تسجيلهما رسميا في موسم الحج لهذه السنة التي تجري فيها الانتخابات. وكأن يدا طولى يمتلكها السيد الرايس تخترق الزمن والمكان وتحقق بقدر سحري كل شيء عجيب.

كانت فاطمة ويزّة من بين المدعوات الرسميات لحفل هذا المساء، مع مجموعتهما الغنائية والراقصة، وكانتا من المفضلات في سهرات الرايس. المرشح، وسهرات الضيعة الخاصة. ما زالتا في ريعان شبابهما ونضارة جمالهما وطراوة

جسديهما... حضرت كذلك مجموعتان إضافيتان. نصبت لهما خيمة كبيرة في باب الضيعة. أقلت السيارة رباعية الدفع، فاطمة ويزّة مع مجموعتهما إلى داخل الضيعة وسط بهو وفضاء القصر الفسيح. مشهد لا يتكرر يوميا ونشوة عابرة لا تدوم. أن تمر الفنانتان راكبتان سيارة الرايس جهارا وأمام أعين الساكنة، عيناهما لامعتان وحسنهما زاده التجميل نضارة يسرق لبّ المولع بفنهما وسهراتهما، فكل ذلك له وقْع على الشعور بتفوق طبقي واجتماعي، رغم أنه عابر عبور الحملة الانتخابية.

وضعت طاولة خاصة بالمجموعة الغنائية، تضمنت طاجينين مليئين بلحم الثور المذبوح والبرقوق المجفف المطبوخ معه. فخذ لحم كبير مفور ببخار الماء الساخن، بتوابله من ملح وكامون وغيرهما. صحون فواكه يابسة. صندوق بدزينة خمر أحمر، وبعض البلاستيكات المملوءة بالماحيا، (ماء الحياة) . الشراب الذي يعتّقُ تينُه اليابس، ويخمر ويعصر ويقطّر والذي أصبح كمادة مألوفة عند مريدي السكْر وسهراته، حتى إن بعضهم وبعضهن ألِفه دون غيره من أنواع الخمور والمسكرات ..

وكما باقي المغنيات أو الشيخات والفنانات، لا يمكن لفاطمة ويزّة أن تبدآ طربا أوغناء ورقصا قبل تناول بعض الكؤوس. علب سجائر شقراء في دزينتين كذلك. هي مستلزمات كل سهرة أريد لها أن تكون مطربة وممتعة وخصوصا سهرة حملة انتخابية. أضف إلى ذلك جوها ومحيطها الأمني الآمن. وكيف لها

ألا تكون ممتعة وهي في ضيعة المرشح الرئيس، ذي النفوذ الاجتماعي والإداري وعلاقاتِ قرابةٍ تصل إلى هياكل عليا في الجيش والإدراة. حتى إن خدّامه من كل السلط والإدارات الإقليمية وغيرها يرجون رضاه وتوصياته لأجل مصالح مهنية ومادية واجتماعية يوافق عليها في مراكز القرار.

هن أربع نسوة في المجموعة. أما المجموعتان الإضافيتان فتضمنتا إحدى عشرة أنثى، إضافة إلى ضيفات الجلسات الخمرية والاحتفالية الانتخابية. فالدعوة في إطار توسيع نفوذ الحملة ومشاركة الجميع فيها من كل الفئات. حتى مَن هم مِن المهمشين والمنسيين المهبولين، سيتخذون زاوية من الخيمة ويجلسون مشدوهين أمام الفرجة، مستفيدين من أكلها وشربها وسهرها. حتى من الشاب صالح، راعي أبقار إحدى الأسر الميسورة بالبلدة كان حاضرا، والكل يمزح معه ومع نوادره المتيمة بالبقر إلى درجة الاشتباه في علاقته بها. ونظرا لهبله، فإنه يكون مقبولا منه كل ما يتلفظ به أو يصدر عنه كفعل جنوني يضحك الآخرين. وحيث يلتقي الاستغلال الاجتماعي البشع بالاستغلال الوجودي لفطرة الإنسان البريئة في لحظات عاهاتها المستدامة أو المرتبطة بصدمات الواقع الذي أنتجها كعاهات، كان صالح بمشيته المتعثرة خِلقةً، صاحب أسرار بين دروب وضواحي البلدة.

هكذا غابت كل القوانين، إلا قانون الضيعة. غابت نصائح إمام المسجد وخُطبته حتى جمعة أخرى. كل من أراد من الجمهور الحاضر في الخيمتين التمتع

بما توفر، عليه أن يعلم أنه مدعو للمشاركة في الحملة والتصويت على المرشح الرئيس.

بينما كانت أجواء الضيعة حمراء وصاخبة، ذهبت أحزاب الكتلة الديمقراطية، عند قائد المقاطعة، تخبره بالخروقات التي تعرفها الحملة الانتخابية للمرشح الرئيس. تنبهه بأنه مسؤول عن كل هذا ويجب عليه أن يوقف ممارسات الرئيس المرشح التي تعوّدها في حملات انتخابية سابقة، يوم كانت الانتخابات في السبعينيات والثمانينيات بطريقة مفتوحة على كل أشكال الولائم وتوزيع النقود والمساعدات وغيرها من أشكال الترغيب والترهيب... حتى إن قائدا سابقا في الثمانينيات كان مساعدا في الحملة لهذا الرئيس الذي تقوّى نفوذه وازداد مع تقوّي نفوذ العائلة في دواليب السلطات العليا...

ولكن، كيف سيعالج القائد الجديد الوضعية اليوم؟ هو يعلم أن شكاية بالمرشح الرئيس، وبعدم القيام بواجبه في محاربة الرشوة والولائم في البيوت أثناء الحملة الانتخابية، سيكلفه منصبه ربما. تنقيلا تأديبيا إلى منطقة صعبة العيش على الأقل. يعلم كذلك أن إيقافه لممارسات الرئيس المرشح سيخلق له مضايقات بإيعاز من جهات عليا في العاصمة أو من الجنوب حيث نفوذ الأسرة العسكري. ما العمل؟ سيف ذو حدّين هذا الإجراء الذي سيقوم به. لم يتلقّ بعد إشارات دعم واضحة لهذا أو ذاك. والمذكرة أو المدونة الجديدة الخاصة بالانتخابات واضحة في محاربة الولائم، والليلية منها على الخصوص.

راجع الفقرات المنظمة والملزمة: (*وفي هذا السياق تم إدراج أحكام صارمة في مدونة الانتخابات تتعلق بتحديد وزجر المخالفات المرتكبة بمناسبة الانتخابات على جميع الأصعدة، حيث تنص المدونة على أحكام ردعية متكاملة تسمح بتصور جميع افتراضات الغش أو التدليس وتحديد العقوبات المناسبة لها*). وكذا: (*مدونة الانتخابات تقر نظاما محكما يمكن من استبعاد كل شكل من أشكال التمويل السري للحملات الانتخابية وكذا من ضمان احترام المرشحين للسقف المحدد المصاريف الانتخابية*).

ما العمل؟ طلب من ممثلي أحزاب الكتلة، وهم من حزب الاستقلال والاتحاد الاشتراكي واليسار الاشتراكي، ربع ساعة لكي يوضب دوريته ويصفي بعض التقارير اليومية. كانت كافية لكي يتصل بالسيد الرئيس المرشح، ويطلب منه أن يفض الجمع، ويفرغ الخيمتين.

وكذلك كان. أمر سائق الرايس بقامته الطويلة وجسده النحيف الجموع المنتشرة حول الخيمة والقاعدة داخلها، بالتفرق والذهاب إلى حال سبيلها حتى الغد. ولما جاءت دورية القائد بلباسه الرسمي ونظرته الحازمة وصوته الجاهر، ومعها لجان يقظة الكتلة الديمقراطية، وجدا الخيمتين فارغتين إلا من بعض العمال

والخدم. الكل فهم اللعبة ويفهمها، ولكن الضغط والإلحاح يفرضان تتبع كل شيء ولو كانت قوانينه مكشوفة في التواطؤ.

للغد، كانت احتفالية منصة مرشح اليسار ومعه مرشحي الكتلة الديمقراطية، في إطار تنسيق لمحاربة الرشوة والفساد الانتخابي وتزوير الإرادة.

تمالوت

ورقة التوت الساقطة من مجتمع يطولحسن

في سماع حكاية يطولحسن، والتي رواها ابن القرية التي ترعرعت وماتت فيها، وحين الغوص في محاولات رسم طفولة وحياة وأحداث شخصية عاشتها من خلال هذه السطور، حضر التناول الإشكالي الذي عانق الموضوع ثقافيا وحاول مقاربة الظواهر المرتبطة به. فكانت مرافعة القلم ليحاكم هذا التاريخ وهذا المجتمع ويسائله.

كانت جلسة مقهى بالحي الذي نسكنه جميعا، والذي نعتبره ناديا للتلاقي والحوار ولعب الورق (الرامي) أو الشطرنج أو الضاما والضومينو. خصوصا وأن صاحب المشروع عامل بالمهجر استطاع أن يبني فندقا فوق المقهى ويوفر خدمات شتى بين مرافقه، حتى عادَ محج زبائن خدمة الهاتف ووجبات الأكل وغيرها من الخدمات. كانت الثقافات متنوعة ومتشعبة بين

شخوص المقهى، بين جماعة الأساتذة التي ترتاده كل حين، وبعض المتقاعدين من الخدمة العسكرية، وبعض الشباب العاطل عن العمل، كانت الجلسات تتشكل أو تتباين، تتجانس إلى حد الانصهار والصحبة، وتبتعد إلى حد الحياد واتخاذ المسافات. وفي بعض الأحيان كانت العداوة تنجح مجانا ضد هذه الفئة المتعلمة بفعل الحملة الثقافية التي يشنها البعض ضد رجال التعليم على الخصوص، فتجد المواطن العادي وقد أصبح رجل التعليم هو العدو الرئيسي له، هو سبب شقاوة عيشه. وكان هذا العدو هو الواقعي الوحيد الموجود في يوميّه ومقهى تواجده.

كنا أساتذة نشتغل بهذه المدينة الصغيرة المفترشة لسفوح جبال الأطلس المتوسط، والمغترفة من بحر عيون مياهه العذبة التي تنفجر رقصة منهمرة على جداول سواقيه وروافد أنهاره المرتمية عوما وسباحة متعرجة حتى مصبها الكبير داخل نهر أم الربيع.

وكانت امتداداتنا الجغرافية والثقافية متنوعة. عقليات مختلفة وعادات جديدة على بعضنا البعض. وكانت آراؤنا تتفاعل مع القضايا والمواضيع التي نناقشها. فبين اختلاف في نوعية التكوين . إذ هناك من تفاعل مع تكوين جامعي اختمرت فيه القضايا الكبرى سياسيا وفلسفيا ودينيا، وهناك من تلقى تكوينا مباشرا بعد نيله لشهادة الباكالوريا في إحدى مراكز التكوين والتخرج، كمدرسة المعلمين أو المركز التربوي الجهوي، أو المدرسة العليا للأساتذة، أو كلية علوم

التربية، وغيرها .كانت عقلياتنا ومنطلقاتنا تختلف بدرجات وزوايا منظورٍ بها للأمور والقضايا، تبين بالدليل اليومي والعملي والسلوكي أننا زخرفة نموذجية لمجتمعنا المغربي المتعدد والمتنوع.

فبعد أيام من بداية كتابتي لهذه الرواية، اختمر الموضوع في تحليل مطرد، أحضرتُه إلى المقهى لكي نقرأه جماعة ونناقش تفاصيله التي أثارها. أصبحتْ شخصية (يطو لحسن) الافتراضية، والتي اشتغلت عليها في الكتابة كشخصية أساسية في كتابة هذه القصة، جزءا من جلساتنا وفردا من مجموعتنا. في كل مرة يتم الاستفزاز القيمي والأخلاقي، كما تتم المقارنة بين نماذج من الواقع وهذه المرأة التي أحياها الذكر مع ابن قريتها الذي يشتغل معنا في التدريس، وفضولنا في سرد قضيتها وقصتها.
مما كتبته كمدخل لتأسيس حوار حول (يطو لحسن)، هذه المرافعة التي سميتها "مرافعة قلم". كأن (يطو لحسن) حاضرة معنا في المقهى، تنتظر من ينوب عنها في الدفاع عن واقعها وتحليله وتفسيره تاريخيا.

مرافعة قلم: *(هل سيكون اللوم على هذا القلم اللعين، الذي نبش في أسرار لا حِدة دفينة في الزمن وفي التراب؟ لماذا لا يترك هذه الأرواحَ لتستريح؟ خاصة وأنه قدرُها، عاشته، أخذت منه نصيبها، استسلمت لنهاياته ولا تطمع في*

تكراره. ستنتظر حياة أخرى، تسوي فيها المعادلة بين الخير والشر، بين العدل والظلم، بين الحق والغصب، بين الإشباع والحرمان. ولو كانت، فهي ربما لا تشفي غليل لحظات الألم وجحيم هذا المعيش.

ربما يكون هذا القلم مرافعا نيابة أمام القدر وحقيقة الأزمان والأكوان. كاشفا أقصى أعذار البوح والقول والفعل، مراجعا ضمائر الأشخاص التي تبقى الحقلَ المناسب لمراجعة التاريخ، ومحاسبة الفاعلين فيه. طريق الضمائر إذاً، السبيل لنصب التذكار الذي يعيد للمظلومين أو الضحايا كل اعتبار. إنه العلاج النفسي الوحيد الذي سيقتلع أسباب الشر والألم، سيرتفع بالإنسان من مجرد منفعل مع الواقع، مريد للانتقام كرد فعل على ما قاساه فيه، إلى حاكم مترفع، طبيب معالج، طهّر ذاته فأراد تطهير واقعه).

السيد أحمد البراني، أستاذ الرياضيات وعضو الجمعية الحقوقية والحزب الموحد، طويل القامة ونحيف الجسم، غالبا من نشبّهه بهيأة سائق الرايس فيثور معاتبا وساخطا على سخريتنا. لكنه دقيق الملاحظة وسريع البديهة في تعليقاته المازجة بين الجد والهزل، تلك الجدلية التي تسهل عليه تفكيك خطاب المحاور وزعزعة مواقفه وتغييرها. علّق على ما سمعه من بداية تحليل في مرافعة القلم:

. وهل القلم سيغير الواقع يا أخي؟ أنظرْ إلى المدينة وفقر عائلاتها.

. أتركني أتمم النص المكتوب ومن بعد ذلك لك التعليق. أعلم أن رياضياتك تريد الإيجاز والمنطق الواضح والبسيط: واحد زائد واحد، تساوي اثنين. لا تعرف الطريق إلا مستقيمة، لا تلتفت لا يمينا ولا يسارا. أجبته والبسمة تخفي مكيدة المصيدة التشبيهية.

ورطني سيد يوسف أستاذ الإنجليزية في تهمة النقد الذاتي:

. هل فهمتَ آ سي أحمد؟ أراد أن يقول لك: مثل البهيمة.

تعالت ضحكات الجماعة الجالسة. رد السيدأحمد بعينين جاحظتين:

. انتظر ساعتك ستأتي إن شاء الله. حين أنتهي من الانتخابات سأصارع أفكارك التي أتيت بها من مدينتك. تعتبرنا مجرد عروبية!

علّق محمد الغرفي أستاذ الطبيعيات:

. ناري يا مسخوط، العروبية إذا تقلقوا يقتلون... مشيت فيها وقضي عليك.

. أُكْمِلُ النص قراءةً أولا، وليكن ما يكن، أنتم الذين طلبتم الاستماع.

أجبته مهدئا من المعركة المفتعلة والمؤنسة لرتابة العيش اليومي داخل مدينة تفتقر لأبسط التجهيزات الأساسية والمرافق المناسبة:

(مع هذا القلم ستعيش شخصية يطو لحسن مع كم من ضمير. ستعرف في الزمن والكتابة كم من مرافعة دفاع وبحث في الأقدار، ومراجعة الأسباب والنتائج وخلق افتراضات سيناريوهات بدائل في الحياة. كان من الممكن أن تعيشها يطو لحسن فتنعم بها. ربما ستكون ثورة انقلابية حتى على هذا القلم

الذي رسم صورَ حياةٍ وطفولةٍ وشبابَ حياة اجتماعية وأسرية أفضل. ستجعل منعرجات قدرية أخرى جديدة.

ربما لن تجمع ذلك الصباح بين رغبة طفولية هائجة في الاكتشاف، مستعطفة في الحنين إلى العفو والتسامح، وغريزة حيوانية متفجرة مع الكبت ومع ضغط فطرة الغاب داخل هذه الغابة الموغلة الأسرار. سيكون مجرد اللعب في الساحة (أسايس)، وتبادل الابتسامات الإنسانية البريئة، ولِمَ لا تلك الشوكولاته والجبن الفرنسي مقابل التين اليابس وحليب الماعز، الدافئ والصحي المغربي.

إنما كان القلم ناقلا لما وقع، وصفا قريبا للمشاعر والتخيلات والأحلام وطبائع هذه الشخصيات. رغم ذلك لن يستطيع تغيير شيء، اللهم غرس قيم في ضمائر وأدوار ومسؤوليات وتصرفاتِ كل منا في هذا الواقع وهذا الاجتماع الإنساني الذي نجعل به حياة.

حينما يرى هذا القلمُ واقعَ اغتصاب الأطفال في بداية القرن الواحد والعشرين، وقد مرت على أحداث يطو لحسن ما يناهز الستين سنة . حوالي ست وخمسين سنة . حينما يرى هذا القلم المستعين بالحواس والعقل في الملاحظة، وبآلة الحاسوب والورقة في الكتابة والتسجيل، ماذا يقول؟ بِمَ يشفع للقضية التي تتبع مسارها رغم ألمها؟

على الأقل، الحكم باغتصاب طفلة أقل ضررا في تلك الفترة. فالبنات تتزوجن في سن صغيرة ومبكرة جدا. ربما أقل من عمر يطو لحسن، نعم أقل من عشر سنوات، بلا عقد ولا توثيق، بحرية ارتباط وافتراق.

ف(يطو) كانت على الأقل في الخامسة عشر من عمرها تقريبا. من سيحكم على (روني René) يحكم كذلك وأولا على مجتمع. علاقاته غير منظمة وغير راشدة بما فيه الكفاية. وعيه بحقوق الإنسان وبفلسفتها المعاصرة والمتطورة حضاريا شبه غائبة. تعدد الزوجات بلا قيد أو شرط. إنها ثقافة مجتمع في طور تحولها الطبيعي والبيئي والحضاري، مصطدمة بصراع مصالح وقيم وممارسة سلطة وقمع وكبت وحرمان، ونفوذ استعمار واستغلال.

هكذا إذًا تطور الملف إلى هذا البعد في التشكل، وحينئذ سنقول: لا لِما وقع. لكن في وعي القرية والطفلة . الشابة، في ثقافة القرية، وقع ما وقع. هناك تصريف واقعي لكل ما وقع. هناك قَبول لوضعيات أخرى لن نحكم عليها بأحكام قيمة. فالمسألة معقدة في التناول والتحليل. تحتاج منا إلى فك عُقد القلم الكاتب، وعُقد الكاتب، وقافلة العُقد، وأحكام العُقد التي تنزل متعسفة على حياة الناس وتصرفاتهم وحرياتهم... ما مغزى هذا المبهم من الكلام؟

سيحتاج القلم للاستعانة بدرجات تحليل العلماء المختصين في دراسة أسرار الإنسان وأسرار تطوره التاريخي والطبيعي وتجريد هذا التطور من كل الأحكام القيمية والعقدية التي شكلتها الثقافات الإنسانية، حتى يخلص إلى تحليل طبيعي

موضوعي ينتصر لموضوعية الوقائع وجوانبها الإيجابية داخل الضمير وفي الواقع الحادث. ورغم ذلك، ما يزال مداد هذا القلم منفلتا من الدخول المباشر في صلب موضوع، يعتبر خطيرا بدرجات، محرما مع ممنوعات، مقدسا ومدنسا في آنٍ في التناول، وربما يُحكم عليه بأنه سبب الآفات.

إنه موضوع الجنس الذي دوخ عقول العلماء والجهلاء، والذي نزلت مطرقة الحكماء بالنظر والتنفيذ فيه، وباركت مسحة رجال الدين وحراس الأخلاق جزءا منه، كما أنزلت اللعنة على الخارج عن نظام كنيسته أو كهنوته).

يعود سي أحمد البراني للتعليق:

ـ كل هذا وما زال القلم لم يتكلم بعد! ما زلت لم تتطرق للموضوع؟ ماذا تريد أنت بالضبط؟ تغيير الواقع؟ اعملْ داخلَ الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، وتبنَّ الملفات ودافعْ عن الأشخاص، وشاركْ معنا في الانتخابات، وحاربْ اللوبيات التي استشرت بالفساد والاستغلال والنهب. أنت جالسٌ ببدلتك الرياضية والتي تجعلها ليوم الأحد خاصة، مترفعٌ في برجك العاجي في اللغة والكلام والعلاقات، تنظر للظواهر من فوق وبشكل تجريدي بعيد عن كل فعل تغيير !

ـ أنا أُنَظِّرْ، وأنت تُنفِّذْ. علّقتُ عليه مختبئا وراء الأستاذ ابن عبد الجليل ـ أستاذ اللغة العربية، المنحدر من مدينة فاس.

. اجمعْ كل ما قلته، الحساب معك من بعد. علّق منفلتا من لحظة الْتفاف الجماعة على الضحك والانتصار للتعليق الذي أبديته.

. في الحقيقة، لا يعرف الرد عليك إلا سي محسن (هاهاهاها). أصدر سي يوسف قهقهته الجهورية والمستفزة.

. إذا سمحتم، أتابع الجزء الثاني من المقال. رحلة شيقة جغرافيا. ما رأيكم؟

. أتمم آ سي محسن، ولكن صبرنا معك هو جعل ثمن إبريق الشاي على حسابك. رد ابن عبد الجليل مخفيا ابتسامته الساخرة خلف راحة يده.

. ما طلبت إلا ما الأسهل آ سي ابن عبدالجليل.

. آ لاَّ، أنا أحتجُّ... جُ .. جُ ... عشاء طاجين، وفي دارك. ألحّ سي أحمد مؤكّداً على طلبه.

. أوكي آ سي أحمد. أنظُر، هل أنت من أهل الطبيعة أو من أهل الثقافة؟ هاهاها... هُوهُوهُو...

تلقى ردي بغليان وانتفاخ عروق أوداجه، فيما تعالت صيحات الجماعة والضرب على الطاولة وعلى الأرض... اخترقتُ كل ذلك بهدوء المتابعة التي احتاجت مني رفع الصوت للإسماع وإيقاف زوبعة الجلسة وصخب كلامها:

"بين الطبيعة والثقافة

موضوع الجنس ليس طابو فقط، بل هو أكثر من ذلك، لكونه يخجل ويكشف صاحبه ليبين له جانبه الطبيعي والغريزي. ما يساويه مع باقي المخلوقات في

سنن كونية وتاريخية. فمن هذا الجانب، كم حارب الإنسان التشبيه الذي يساويه بالحيوان، كم رفض قانون الانتماء للطبيعة وميكانيزماته...".

تابعت المجموعة ما تبقى من هذا المقال بصبر. وكانت عيون بعضهم مترقرقة بين مناخ حواریاته الهامشية ومستملحات التعليقات. لكنها تألقت أكثر في رسوخ بعضها بالتركيز مع محتوى ما قيل فيه. أدركتُ حدسا أن البعض منا سيعود في مناسبات أخرى لتعميق الحديث فيه بما يناسب الثقافة والقناعة الذاتية عند كل واحد منا. بما يناسب التوازنات النفسية والتربوية والاجتماعية أكيد.

أثار صخب نقاشنا من جديد محيط جلستنا والجماعات المنخرطة في لعب الورق أو في تدخين مخدر ما. وكانت الورقة التي أعددتها، جديداً استفز القيم الاجتماعية والدينية التي يحملها جلنا. لم يمر على تطور نقاشنا لكتاب (الذاكرة الموشومة) لمؤلفه عبد الكبير الخطيبي، والذي اقتنيته من الخزانة المدرسية بالثانوية التي نشتغل بها، إلا الأسبوع أو أقل، والآن يخترق التحليلُ الجسدَ المغربيَّ الجريحَ الذي يسكن في أعماق نفسية كل واحد منا. كنت وما أزال ربما أرى في تقاسم ما أقرأ خير وسيلة لنشر وعي جديد وفكر جديد، مؤمنا بأن التواصل الحواري أفضل من التخزين الفردي للمعلومات. هكذا كنت أدرك كذلك أن علاقات الصداقة والعمل ستكون أرقى بهذا الشكل في التعامل. وطبعا يبقى اجتهادي مقبولا من طرف البعض أو مرفوضا من طرف البعض الآخر. لكن كل واحد

يختار معسكره الذي يناسبه. هكذا أجدني أطمئن نفسي وأنا مستمر في الزحف على فراغ الواقع، وفي تناول هذا الموضوع المرتبط بقصة يطو لحسن.

صعبٌ على ذات شخص تشبّعت بثقافة تقليدية حول المرأة أن تغير من ثوابت قناعاته، خصوصا أنها قناعات في تغيرها يكون هناك تغيرٌ وجداني في التموقف من كل أنثى، من داخل أسرته أو مدينته أو مجتمعه. لقد انتفخت العروق والأوردة حين النقاش، وكان الاتهام لبعض الأفكار التي تناولها تحليل ظاهرة الجنس عبر التاريخ بالتبني لأفكار غريبة لا علاقة لها بمجتمعنا وديننا. وكان الحرج يعرقل التعمق في الموضوع. وكانت القناعة بالاستمرار في الحكي عن (قصة يطو لحسن)، والاقتراب من مشاعر مجهولة دفنها تاريخها الخاص وتاريخ أمة همّشت أصحابها من الذكر والإنصاف.

بقيت الكتابة وفية إذا لصيرورة يطو الحياتية، وغاب الموضوع عن التناول مع جماعة الأصدقاء بالمقهى. وبقي الوقت الخاص بجلساتي الفردية والتأملية أعيشه داخل روح الشخصية التي أثارت انتباهي وانبعثت في تفكيري ومخيلتي. أما مقال (ورقة التوت بين الطبيعة والثقافة)، والذي شكل الورقتين اللتين ناقشتهما في المقهى، فقد بعثته لجريدة يومية من أجل النشر، ولا أدري كيف كانت ردود الفعل بين السخط والقبول. ذلك في علم الغيب الآن. أما ما هو في

علم الشهادة، فهو اتفاق الجماعة على تغريمي عشاءً باهظ الثمن بمطعم للشواء.

ـ أخاف أن يحسب الناس ويخالوا أن مرشحنا سيد أحمد البراني أعزه الله، قد وظف المال في حملته الانتخابية، لكي يكسب أصواتنا وتصويتنا عليه في الصندوق.

ـ آ سيدي، لا نحتاج لهذه الانتخابات. لا حاجة لنا بهمّ السياسة الآن. نتناول العشاء، وإذا أرادوا إسقاطنا من الترشيح للانتخابات لهم ذلك. يا الله. ارتحتَ؟

ـ يا صاحبي أرى أن الأكل يعمي البصيرة. والله العظيم.

ملتفتا إلى الأستاذ ابن عبدالجليل:

ـ ماذا نوى بقوله هذا صاحبنا محسن؟ سأل الأستاذ أحمد.

وراء لمعان عينينه وانعكاسه على زجاج نظارتيه، أجابه بدموع ضاحكة:

ـ لا، لا، لا شيء فقط أن الأكل مهم قبل الانتخابات.

ـ (حتى أنت معه وفي صفّه آ الفاسي. أنا بوكُم سوف أحاربكم وأواجهكم أجمعين).

كانت دعوة وحملة سي أحمد البراني، الأستاذ المرشح للانتخابات، منطلِقة من مبادئ ومن تصورات تنظيمية جديدة على الثقافة الشعبية في البلدة. مبادئ النزاهة ومحاربة الرشوة والتواصل المباشر بالحوار حول برنامج انتخابي مكتوب ومسطر وواضح وشفاف. وكانت المنصة الميدانية لحملة مرشح اليسار الموحد بمحاذاة الحي الشعبي الأكبر في البلدة. كانت الفكرة طبعا هي الاقتراب من الجماهير الشعبية، ما دامت أفكارنا ملتحمة مع قضاياها، محاربة الإقطاع والإقطاعيين، محاربة الاستعباد الاجتماعي الذي خلقته الأسر الكبيرة التي تناوبت على مهام السلطة في البلدة، حيث كل واحدة اجتزأت هكتارات، ووفّرت أملاكا على أملاك، وخلقت امتيازات وأصبحت لها أصول مادية وثقافية واجتماعية. كما استطاعت الترقي اجتماعيا وتعليم أولادها ما أمكن ليصلوا إلى مناصب عليا...

بمقابل رغد العيش في الضيعات والدُّور الكبيرة المحاطة بالأسوار العالية، كانت هناك أحياء فقيرة تنعدم فيها شروط النظافة والعيش الكريم. كان الفقر

ديناصورا يلتهم كرامة الإنسان كل يوم، ويكسر شوكة العيدان الصلبة المتحدية لرياح الإهانة والاستغلال للنفوذ وهضم الحقوق.

هكذا كانت أعين المناضلين في حزب المرشح اليساري مستيقظة على القيام بمهام مبدئية، وتربية المواطنين على وعي جديد والتزام جديد. ولكن أي رهان للنجاح في هذه المهمة؟ الناس تقاوم الخصاص في الأولويات الحياتية، الجوع والمرض والحرمان... أسر كثيرة طردها الجفاف من أماكن منبسطة، وأخرى شردتها الثلوج والظروف القاسية في أعالي وقمم الجبال وطردتها إلى هذه السفوح الأقل برودة والمناسبة نسبيا في طقسها وظروف عيشها الطبيعية. وأسر أخرى أفرزها التباين الطبقي داخل البلدة لتكون ابنته الشرعية بامتياز، ولتحافظ على قانونه واستمراره.

كانت التخوفات اليومية حاضرة خلال الحملة الانتخابية. لكن الضمانات الوطنية التي سجلتها المرحلة التاريخية للأحزاب المعارضة مع أجهزة وزارة الداخلية الممثل التنفيذي للدولة، شجعت الجل على الانفتاح على تجربة ديمقراطية، وعلى المشاركة في الانتخابات، آملين في تغيير وفي فصل بين السلطات مستقبلا، خصوصا مع الدستور الجديد. وآملين كذلك في وضع حدٍّ لسلوك المخزن المتحكم في كل الميادين، حالمين ببدائلهم النضالية وطبقتهم البروليتارية...

لِمَ لاَ، ما دام المطلب عادلا تاريخيا، فلا تنازل عنه. هكذا حدودهم القصوى في التميز والاختلاف، وفي التنفيس من حدة تناقضات الواقع وفي الانتقام من التخلف والجهل والأمية والاستبداد. تخلف تجلى في كون بعض أعضاء الكتلة المنخرطين في الحملة الانتخابية . ما دامت كتلة غير منسجمة بين مكوناتها سواء الحزبية أو الفردية . يضعون رجلا هنا مع الكتلة، ورجلا هناك مع السيد الرئيس . المرشح، هذا المرشح من جديد للانتخابات والذي يجعل حملته تحكمها ولاءات اجتماعية ومساعدات مادية بكِيسِ قمح أو دقيق أو ما شابههما طمعا.

في جلسة المقهى الشعبية، والتي هي مطعم مشهور بالشواء والطواجين بجانب محطة وقوف الحافلات والشاحنات وسيارات المسافرين بين خط فاس ومراكش وما ارتبط بهما من شبكات طرقية، كنت جالسا لتناول صحن شواء، لما ظهر من جهة الشمال، الآتية من الحي المجاور، رفاق العمل والنقابة والجمعية. تقاطع ثقافي وتجانس سوسيو مهني، وطد العلاقة والصداقة وتبادل الزيارات والدعوات فيما بيننا. جلسَتِ الجماعة بعد دعوتي لها لصينية شاي. بدأ الحوار الذي بدا أنه سيغلب عليه موضوع الانتخابات. كنت ذاك الذي لم ترض عنه الجماعة، ما دام لم ينخرط في الحزب، رغم حضوره لمؤتمره التأسيسي الأول. ذاك الذي لم يستلم بطاقته الانتخابية بعد، والذي كان رافضا الدخول في اللعبة برمتها، وكان رقما ناقصا في الاحتمالات العددية لمرشحنا الأستاذ والصديق العزيز السيد أحمد البراني.

ذهب الحوار إلى النقاط الساخنة إذاً، حول سبب العزوف، مع الاتهام بعدمية وترك الفرصة لديناصوراتٍ تلتهم أكباد المجتمع وتنهش أجساده، وتختمر

بعرقها... كان منطلقي المنطقي هو غياب دستور ديمقراطي. لا يمكن للديمقراطية والانتخابات والعمل السياسي النجاح بدون قانون أعلى موجه بشكل سليم. شبهت العملية بلعب الورق (الرامي)، وامتلاك الطرف الآخر في اللعبة لجميع الأوراق الرابحة (جوكير)، بينما أنت لا تمتلك منها ولو واحدة. لمن سيكون الانتصارُ مضمونا متى شاء وكيف شاء؟

. طبعا لكم الاستنتاج يا جماعة الأصدقاء.

ورغم ذلك ترد عليّ الجماعة بأنه:

. لا بديل. ندخل اللعبة ونغير من الداخل، لا نترك الفرصة للسماسرة وناهبي المال العام يبيعون كرامة الشعب، ونحن نقعد متفرجين.

. طيب، أنا أساندكم من منطلق مبدئي. لكنني، لن أورط نفسي مباشرة. سأخون المستقبل. سيبين لكم المستقبل فشل التجربة.

. مشكلةٌ هذه مع صاحبنا هذا. رأسه قاسح وكل شيء عنده معقد، لا الثقافة ولا السياسة. يعلق سي أحمد.

. إنه آت من بلاد الحجر. (دُقّ المسمارَ وسيعوج). كان رأسه متكئا على الجدار من الجهة الخلفية. يعلق سيد ابن عبد الجليل ساخرا مني ما دامت مدينتي الأصلية قريبة من مدينته فاس، عالما بثقافتي التي أنحدر منها، عالما

بالتعليقات والنكت التي لمدينتي حظ منها داخل سخرية المجتمع عموما. هكذا نتخلص من الاختلاف بمرح الكلام و(دكّات الشاي) أو جرعاته الدافئة والمسكَّرة.

. سأضمن لكم صوت فاطمة ويزّة. ما رأيك يا مرشحا العزيز؟ أتوجه بسؤالي إلى الأستاذ أحمد.

. أنت دائخ مع (يطو و يزّة)، شخصيتا روايتك الرئيسيتين. كيف ستقنع من هم أو هن مخندَقين اجتماعيا وثقافيا مع أعيان البلدة والسلطة؟ اخدُمْ معنا بالمعقول ومباشرة في الميدان. تواصل جماهيريا واشرح برنامجنا وقم بتعرية الواقع للعموم. أما يزّة وفاطمة، فإنهما البارحة كانتا في الضيعة داخل القصر. يرقصان على الكمنجة والبندير طول الليل بأكمله.

. آ سيدي ذاك شغلهما. أنا أضمن لك صوتهما وصوت عائلتيهما، بطريقتي. ما رأيك؟

. ما يلزمنا غير صوتك آ سي محسن، وصداع هؤلاء نبتعد عنه.

. الثقافة العضوية، فيها وفيها ما رأيك أستاذ أحمد؟ هاهاها...

نخرج من جو التوتر الذي تخلقه نقاشاتنا إلى التفويج بالكلام (التفواج) كما نسميه. طريقتنا في التنفيس وعدم توتر الأعصاب في كل حوار قد يخلق

تشنجات عصبية وقلقا غير إرادي عند بعضنا. سحر الصداقة وجلساتها، خصوصا إذا كانت صادقة أكثر.

يسافر ذهني شاردا عبر الأزمنة والمشاهد والحوارات الكلامية والنقاشات التي اجتمعت فيه في اللحظة الواحدة. تبرز كمرآة صورة السيد أحمد البراني، وكأن حواسي استغنت عن ذاته المادية الماثلة أمامي في جلستها، واستعانت برمزية شخصيته التي استجمعها عقلي في تشكيلها. لنا أسرار نبوح بها لبعضنا. وقد تكون متقاسمة بين إثنين، وربما بين ثلاثة، وربما بين أربعة، خمسة، ستة... معادلة لا يمكن الحسم في حدود دوائرها. لكنها معادلات بدل واحدة. معادلات تجعل الذهن يستعين بها كمعلومات لأجل تعديل تحليل أو فهم أو استنتاج.

ما يسجله ذهني حول شخصية صديقي أحمد أسترق منه ما يناسب تحليل وتبرير ميوله السياسية والثقافية والفكرية. لكنه تحليل قد يكون متقاطعا ومتقاسما بين شخصياتنا، مناسب للحكم على مواقفه وربما التموقف معها أو منها. طفولة يُتم مبكر وعيش في حضن أم وفي ظلال عطفها وحنانها. ربما بكاء صغره وأشكال الحرمان فيه والتفاوتات التي يكون قد سجّلها ذاتيا بشكل واعٍ أو لا واعٍ، ربما كانت هذه الأمور وراء ميوله الفكرية والسياسية اليوم. لكن ذاكرتي تسجل كذلك مستوى آخر من التحليل، يتطور مع كل تفاعل جديد

داخل دائرة عيشنا واجتماعنا وعملنا المشترك. ويجدد التحليل آلياته مع أقواس استفهام منفتحة:

. هل يكون لميوله العلمية وتخصص الرياضيات دور في درجات المنطق والتحليل السياسي؟ هل يكون لمرحلة تمدرسه بالديار الفرنسية لمدة زمنية من تكوينه كأستاذ دور في تشكل وعي وفكر يساري ورغبة في تحرير المجتمع والذات؟

أضحك داخليا من هذا الشرود الذي قد تلومني الجماعة عليه. وأطمر سؤالا أراد أن يطفو فيزوبع ذات كل واحد منا:

. وهل تحررت ذواتنا بما يكفي لكي نبحث عن تحرر للمجتمع؟ !

شاءت الأقدار أن توافي المنية روح السيد حوسا العسكري. وكأنه أراد توديع البلدة في عز صخبها الانتخابي. حضر جنازته كل من يعرف شخصه وعائلته، وكذا كل من يعرف قيمة تضحيته من أجل بلده الكبير المغرب. لكن هذا الحضور طبعه كذلك البعد الانتخابي. حاول كل طرف توقيع إمضاء حضوره وتعاطفه ومواساته مع روح المرحوم ومع عائلته وعشيرته.

تطل المقبرة على حي سكناه. تأتي منحدرة من مرتفع مؤدٍّ إلى عين تايدة كما إلى أحياء أخرى جديدة بالبلدة. تجمهرت النساء في باب المقبرة معلنات تعاطفهن ومؤازرتهن لزوجة المرحوم. شحبن وندبن وصرخن. سُمِع إنشاد باللغة الأمازيغية لم يفهم منه السيد محسن سوى كلمة حوسا المرددة. التقطت أذناه كلمة الصحراء، وسافر ذهنه بعيدا هناك حيث لا يمتلك وصفا إلا ما استجمعه من كلام الناس وتقارير الصحف ووسائل الإعلام أو هذا العالم الجديد للأنترنيت ومواقعه المتنوعة.

فيما كان المتطوعون يساعدون الحفارين في مواراة التراب على جثمان الفقيد وحيث تقدم الأستاذ أحمد لمساعدتهم برش التراب بالماء تفاديا للغبار الأحمر المتصاعد، وحيث بعض حفظة القرآن في قراءتهم المتسرعة لسورة (يس)، سُمِع صوت محرك وقد توقف بفرملة خفيفة قرب باب المقبرة. تراجع صوت النسوة وغلب صوت القراءة لآيات الذكر الحكيم، التفت السيد محسن جهة مدخل عالم الأموات. عمودان مكسوان بتراب يغلب على خليط الإسمنت الذي بُنِيا به، يشكلان مدخلا للمقبرة المحاطة بسور ممتد ومتهالك يسيج عالم الأموات.

كانت سيارة رباعية وقد توقفت مواجهة للبوابة، ينتظر ركابها ربما انتهاء المشيعين للجنازة. استدارت النسوة لرؤيتها وخفت نحيبهن دقائق ثم استعاد بعضهن التذكير بالمرحوم وببطولته والدعوة إلى رحمته وإقامته في جنات النعيم. كلها استنتاجات سأل عن مضمون مقولها السيد محسن فيما بعد. فيما كانت سيارة نقل الموتى راسية تحت ظل شجرة ميموزا منفلتة من إهمال هذا المدخل من تشجير وتظليل، كان الناس واقفين تحت رحمة أشعة شمس الخريف القاسية بتوقيت ما بعد صلاة الظهر التي أديت بمسجد السعادة، المسجد الجديد الذي هو في طور الاكتمال بفضل انتظار بركات المحسنين والمتبرعين.

كان إمام المسجد حاضرا في الجنازة، وكان بعض أعضاء لجنة جمع التبرعات حاضرين كذلك. لمح السيد محسن الوجوه وحاول استبانة درجات الخشوع والتأثر. لعبة ألفها منذ صغره. وكأنه يقرأ خبايا النفوس وما لا يقال جهرا ولكن

داخلها. أجّل استرساله في هذا الشرود والهذيان، لكنه التقط نظرات العيون اليقظة والملتقطة هي الأخرى لانتباه الحضور. كانت خريطة التشريح للانتخابات لافتة في تشكيل مشهد الجنازة. حضر خمسة أفراد من مرشحي الكتلة، بمن فيهم الأستاذ أحمد البراني. كما حضر اثنان عن حزب الحركة... قد يستقيم بعضهم في وقفته وكأنه قائم بالواجب في التعاطف والمواساة، محافظا على عنقه المرفوع جهة السماء وكأنه منبر أو منارة أو صومعة. لكن وسوسة السيد محسن لم تفوّت اللقطة دون أن تخونه: (ثقافة أنظروا إليّ، "شوفوني" !).

أخفى ابتسامته الماكرة خلف كم قميصه الذي مرّره أمام مارن أنفه. تأمل في لحظته أعضاء المجلس البلدي الحاضرين، كما المرشحين، كما السيارة التي تبين له أنها للسيد الكرامي صاحب الكاريزما الخاصة بالبلدة. وتأمل أكثر وكأنه ينصفه في حضوره وعمله التبرعي وإنسانيته وتواضعه السيد علي بلحاج، صاحب سيارة نقل الأموات والتي ما تزال تحمل لوحة ترقيم أجنبية وليست مغربية محلية. كاد أن يصرخ ضاحكا لولا تذكره بأنها جنازة. كاد أن يعتبر نفسه أحمق أو مجنونا لولا تماسكه في سلوكه، والسبب هو هذا التناقض الصارخ الذي استنتجه سخرية لا ترحمه في التقاط المفارقات والتناقضات والعبث الذي يراه في ما يجب أن يكون محكما بالقانون والاجتماع.

السيد علي بلحاج، عامل بالمهجر، متقاعد وقد عاد لبلدته لكي يستقر بها ويعيش ما تبقى له من عمره بين أحضان زيتونها وناسها ومائها وخضرتها. آثر

أن يتبرع بسيارته ويجعلها خاصة لنقل أموات البلدة مجانا كما المساهمة في تجهيز جنازتهم رجالا وإناثا. تعقّدت المساطر الإدارية، وعرقلت العقليات البيروقراطية عملية تحويل ترقيم السيارة من وصفها الأجنبي إلى الوصف الخاص بسيارة إسعاف أو نقل أموات. وبقي تطوعه بها لنيل الأجر في سبيل الله تعالى في انتظار حل قدري لمشكل الترقيم.

أعضاء من المجلس البلدي حاضرون. المرشحون حاضرون كذلك. عمدتهم في الترشيح والتسيير للمجلس البلدي حاضر كذلك، ولو كان حضوره داخل سيارته التي تفيّئه وقاية له من الغبار ومن حرّ الشمس. والسيد محسن يشتعل بنار مقارناته وتحليلاته. مَن المساهم الحقيقي في هذا المشهد في توفير مصالح الناس؟ لم يحتج إلى جواب. استدار جهة البوابة متسللا مما تبقى من مراسم الدفن والمواساة، وانحدر ذاهبا إلى حال سبيله وإلى محل سكناه. مات السيد حوسا رحمه الله تعالى تاركا خلفه تناقضات ظروف العيش لأسرته، وتناقضات سياسة بلدته، والأهم مفارقات الصالح من الطالح في كل هذا. هرول السيد محسن إلى منزله المكترى، أمسك بقلم ربما سيخفف عنه عبء هذه الملاحظات، أو ربما سيفجرها بركانا فوق الورق:

(العيون خائنة بغريزتها. الذئاب تشتهي الأحياء متى أصبحوا أمواتا. وتشتهي أكثر الحمَل الذي فقد راعيَه. ترقص لشروده وتحتفل لمشاهد حتفه...).

. لن أتمم تفاصيل الحكي هنا، احتراما لذكرى أموات ولحزن فراق الأحياء !

هكذا خاطب نفسه واضعا القلم الأزرق فوق ما تبقى من الصفحة وبياضها.

مرت الانتخابات في جو مشحون بين جيل وثقافة قديمتين، وجيل وعقلية جديدين أرادتا مواكبة التغيير الذي تريده طموحات الأحزاب الوطنية المناضلة من أجل ديمقراطية حقة، والتي كافح مناصروها وروادها ومناضلوها من أجل لحظات أشرف في الحياة السياسية. لذلك، تجد اللحظة الزمنية التي تواكب وترافق كل خطاب أو تواصل سياسي أو ثقافي واجتماعي بين مكونات هذا المجتمع، محكومة باجترار هذا التاريخ ومؤثرة على المواقف بدرجة الوعي بالماضي السياسي لهذا البلد العزيز.

تلك صورة مكبَّرة جسّدها مجتمع مصغر تمثّل في تعايش مكونات مناضلي ومنخرطي فروع أحزاب هذه البلدة. قد تجد المخلصين والوفيين لكل حزب، كما قد تجد النفعيين والمتذبذبين في ذلك بدرجة أغراضهم الشخصية ووعيهم بالعمل الحزبي والسياسي. لذلك كان المناخ العام للحياة اليومية محكوما بهذه الخلفيات الشخصية والموضوعية العامة. كانت مجموعة منظمة العمل الديمقراطي الشعبي، سابقا، أو اليسار الاشتراكي الموحد لاحقا، وكانت

مجموعة الاتحاد الاشتراكي، وحزب الطليعة الاشتراكي، هي الغالبة على مكونات اليسار السياسي بالبلدة. وكان حزب الاستقلال متجذرا بأسر عريقة في الانتماء، ممتلكة لنفوذ اجتماعي على فئات اجتماعية داخل البلدة، وأملاك فلاحية وعقارية، وولاءات نازلة إلى خدم وأسر تابعة، وصاعدة إلى كوادر حزبية أو أبناء هذه الأسر التي تسلقت في السلم الإداري والمهني لتصل إلى مناصب عليا في الإدارة والمؤسسات الوطنية. كانت هناك فئة تنتمي إلى "الحركة"، وهي مرتبطة بتموجات السياسة الوطنية، تنقلب مصالحها بحسب التوجيهات العليا للحزب والمناخ السياسي. ناهيك عن العناصر التي تنتقل من حقل ودائرة إلى أخرى، بحسب تحول مصالحها ومن يزكي ترشيحها ويدافع عنها وعن مصالحها هذه.

ومن غرائب الأمور في السياسة التي لم تصبح غولا مخيفا، ومُلْتَهِما لمن فكر في ممارستها مع الانفتاح الجديد خلال تسعينيات القرن العشرين، أن انضم من لم تكن له ولو أدنى علاقة بالسياسة بحزب يساري متجذر في القدم وفي خطاب الشيوعية، فأصبح من منخرطيه ومن نقابته لكون رئيس حزبه أصبح وزيرا للتعليم. بسرعة برق وقع التحول من حياة خالية من أي ممارسة سياسية، مرتبطة بلقمة العيش والسوق الأسبوعي في التسوق، والعمل البسيط والبعيد عن كل إيديولوجيا، إلى حياة مرتمية في بحر لا تتقن العوم فيه. ولكنها تتقن إبداء الرضا للوزير الجديد الذي يعمل في حقل استوزاره. ربما طريق فئات

جديدة للتسلق والترقي المهني والاجتماعي. وكم من مقتنصي محطات تأسيس حزبية أو نقابية يركب على هذا الأمر، فتجده بقدرة قادر، زعيمه الوحيد ومستفيده الوحيد. هذا أصبح متفرغا نقابيا، وهذا أصبح ممثلا نقابيا وحيدا داخل قبة البرلمان. أين هي قاعدة النقابة؟ حينما نحتاجها نجمع لها حشدا جما وغفيرا، للتصفيق والتوقيع ونجعلهم طامعين في فتات موائد الكبار.

حينما يكون هناك وعي مشترك ومتقاطع بواقع سوسيو ثقافي، وسوسيو سياسي، مثل هذا، يكون اليومي برؤية خاصة ومتابعة خاصة. هي رؤية العلاقات وتفاعلاتها داخل هذه البلدة الخاصة. هي تأملات السيد محسن التي نوّع تسجيلاتها وتدوين ملاحظاتها.

. السلام عليكم.

. وعليكم السلام أستاذ أحمد. إلى أين هذا الذهاب المبكر؟

. عندنا اجتماع للمجلس آ سي محسن.

. كان الله في عونكم مع أغلبية السيد الرئيس القديم الجديد.

في جلسة مقهى صباحية، اعتدتُ عليها يوميا تقريبا مع عادة الاستيقاظ الباكر، كان لنا هذا التواصل، وهذا الحوار حول واقع البلدة من جديد، وواقع التسيير الجماعي للمجلس البلدي. بين تحليل العقليات وكشف حقيقة السلوكات، وفضح وضبط خروقات واختلاسات. كان لتناول مواضيع سياسة البلدة وربطها بسياسة البلد الكبير، وقع مستمر على الوعي في تجذير الاستنتاجات السابقة واللاحقة. بدت الصعوبات في التغيير وتحقيق

الطموحات النضالية ونزاهة العمل والمحاسبة للخروقات والانتهاكات والاختلاسات. بدا ثقل النفوذ في حماية الأفراد وعدم القدرة على عيش عهد جديد من الديمقراطية كما أُريد لها في الشعارات. لكنه بدا كذلك تشبث كل واحد منا بمبررات موقفه وسلوكه في الدخول لهذه الانتخابات.

. يكفيك سيد أحمد أنني أخذت البطاقة من أجل التصويت عليك، إيمانا بما نتقاسمه من قناعات. أما على المستوى العمومي، فما زالت شروط الديمقراطية غائبة. ها أنت ترى.

. ولكن، آ سي محسن. أُتْمِمُ معك هذه النقطة وأذهب للاجتماع، وقت الاجتماع قد اقترب. من سيرصد الخروقات ويضبطها إذا بقينا بعيدين عن المجال؟ ومن سيدافع عن المظلومين ويحمي المال العام إذا بقيت أعيننا وتأثيرنا غائبين عن المتابعة والمحاسبة؟ هناك مشكل. لابد من التضحية في المرحلة الراهنة. تَصوَّرْ أنه حتى موسى الحلاقة، ودهان الأحذية لتلميع حذائه، يشتريه الرئيس من مال البلدية! كل مرة تذهب ال(بيكوب)، السيارة العجيبة، محمَّلة بالتموين من ألفه إلى يائه إلى الضيعة. اللهم إن هذا لمنكر!

. على العموم النقاش يطول. أنت عندك اجتماع مع الناس الكبار، وأنا عندي تصحيح للفروض. الله يكون في عونك معهم. لا تنسَ، الليلة نحن مدعوون

لعقيقة عند الأستاذ جواد، أنت ضمن اللائحة التي كلفني بالاتصال بها. أحضر المائة درهم من أجل التهنئة الجماعية. لا تنس ذلك.

. تكلّف بها أنت حتى أردّها لك في نهاية الشهر.

. ها ما قلناه. الفضولي بشكارته ونقوده !

تناولنا وجبة ووليمة العشاء بعد دورة حلويات وكؤوس شاي التي دوختني بحكم قطع السكر المذوبة والتي تحتويها، وعدد الكؤوس التي شربتها. إدماني على البن يجعل تناولي للشاي نادرا، رغم أن الثقافة الاجتماعية والشعبية مرتبطة بصينية الشاي، المغنطيس الجامع للأفراد والأسر في كل حين ومناسبة. حتى الجملة أصبحت ملازمة لكل ديبلوماسية أقوم بها مع الأفراد والأصدقاء: (شان كاس نوا تاي) بالأمازيغية، (شي كاس دْ أتاي) الدارجة المغربية، (كأس شاي) بالعربية الفصحى، un verre de thé بالفرنسية ، بالانجليزية a cup of tea. نتفنن في التعبير باللغات واللهجات وكأننا ندور في تحايل حول نفس الأمر حتى نعطيه الجدّة والأهمية. وفعلا، لكأس الشاي القيمة في الشرب وفي رمزية تحقيقه للتواصل ومبتغياته.

كان (الطُّلْبة) حفظة القرآن والأدعية قد انتهوا من قراءة ما تيسر من الذكر الحكيم، فرادى وجماعة، كما انتهوا من الدعاء لصاحب الوليمة والعقيقة وللحضور باليمن والبركات... هممتُ بالانصراف بعد ذلك حينما طلب مني الأستاذ جواد البقاء إلى حين. انصرف السيد أحمد البراني ومعه بعض الأساتذة الذين حضروا وبعض المدعوين. بقينا نحن ستة من المدعوين إلى جانب أفراد

أسرته من الذكور وبعض شباب الحي الذين لهم صلة رياضة وصداقة مع السيد جواد.

ـ ماذا هناك آ سي جواد؟

يردّ علي الأستاذ جواد بابتسامته المعهودة والتي زادها نور بياض جلبابه براءة وبهاء:

ـ الشباب أرادوا الشيخات. فرحة ميلاد ذكر بعد الإناث. قلت لهم رغبتكم هي الأولى. الفرقة الفنية بمنزل مجاور، نصف ساعة وتلتحق بنا هنا.

ـ يبدو أن هذه الليلة ستكون بيضاء بدون نوم؟

ـ الليالي مثل هذه لا تتكرر كثيرا آ سي محسن.

ـ سيسمع المنصرفون من الوليمة (جرّة الكمنجة) ووصْلتها وهزات البندير، ويحاسبونك غدا.. دبِّرْ أمرك !

...

بالفعل، هناك من رجع إلى جلستنا الاحتفالية بعد أن كان يستعد للنوم بفراشه في منزله وسمع بداية الحفل الصاخب، خلع المنامة ولبس العباءة، وتوعد ولامَ الخديعة:

. ألا نستحق نحن جلسة النشاط آ سي جواد؟

. ها ما قلناه آ سي جواد. قمت بالرد عليه مورطا له في صنعة مكيدته مع المدعوين.

. أنتم أصحاب الجدية والمعقول آ سي محمد. أردتَ جلسة المرح، ها أنت رجعت. الليلة ليتك... هه.

كانت جلستي في زاوية من غرفة الضيوف الواسعة، مقابلا لمشهد الحفل ومهيمنا على صورة جماعته من فرقة وضيوف. بين إغماض العينين، وتثاقل الجفنين، وبين متابعة حركات الرقص والغناء، كان الذهن يربط القدر بين تسميتين، وشخصيتين، وحركتين، بين شخصية يزّة الماثلة في الحفل بحركات رقصها خفيفة الظل، والمليئة بابتسامات الحياة وجمال النظر لوجهها الوسيم، وبين تصور شخصيتيْ رواية (تمالوت) يزّة ويطولحسن. تقاسم مشترك لمسار حياة هوَ، يتجدد وتتجدد ظروفه وطقوسه من جيل لآخر.

ترى، هل هذا هو نسق التحليل الطبقي الاجتماعي المستمر عبر الأجيال؟ هل هذه هي إعادة الإنتاج للثقافة والاجتماع والاقتصاد؟ أسئلة كانت تقاوم دقات البندير المتسارعة لرفع الإيقاع، ولهز البطن المتمايل والذي يجعل العيون المتابعة في حِول من أمرها ورغباتها.

كانت أسئلة تحتجب معها عينيَّ وراء كفّيْ يدي، لتُقلِّص من أشعة ضوء مصابيح الكهرباء، ومن أثر صدى الصوت الصاخب على شبكة الدماغ، حتى يسافر في هدوء داخلي داخل هذا السهر الذي يختلط علي بين فن وضجيج، فلا أجد له تصنيفا واحدا، بل متناقضا، ما دام الذوق قد تعدد عبر الزمان، واختلط فيه ملح كل طعام، فأصبحنا في تخمة من هذا وذاك، بتخمة الثقافات التي أخذت تتزاحم على عقولنا وسلوكنا. تجد دواليبنا بتصنيفات لباس وشخصيات، أعظمها يوم الجمعة حيث يصبح البعض منا حمَاما طائرا، بينما يوم السبت قد يصبح ذئبا أو ثعلبا مقتنصا ومفترسا.

سافرت في دواخلي واتسعت عوالمي الذهنية، وكانت الشخصيتان الافتراضيتان هما المهيمنتين بروحيهما وهمسهما وفضاءاتهما.

هكذابدأ شريط حياة يزّة ويطو، الأخريين الغائبتين، مواكبا لشريط غناء فاطمة ويزّة الحاضرتين:

في (تمالوت)

أَطلَّ على القرية، قرية تمالوت. بطول المتر وخمسة وثمانين سنتيمترا، بنحافة جسم وخدّين معظوظمين، بعينين عسليتين وذقن صغير ليس بعريض لتنبت عليه لحية سميكة. وجه حليق وحركات طليقة، لكنها ساكنة وخافتة، تترجمها نظرات عينيه المبتسمة بحزن عميق محمول كأثر وجودي لا يُبدِ رغبة في الحياة.

جاء في لباس صيفي، بقميص أبيض مفتوح وسروال من ثوب ملائم لتهوية الجسم من حرارة شمس هذا الصيف ولهيبها. وحيث إن النهار يصبح مثل استراحة للكائنات، نادرا ما ترى مخلوقا يتحرك فيه. فالجو قاري حاد. الصيف حار لدرجة تشكل لمعان صخري منعكس الأشعة على منحدر الجبل الذي لا تقاوم البقاء فوق تربته المتشققة سوى نباتات دوم أو صبار أو سدرة، هنا وهناك.

يستغرب لهذه الحرارة المرتفعة ولهذه الغابة المجاورة الظليلة التي تتنكر لأشعة الشمس فتقي خلائقها من لهيبها. يلاحظ هذه الأكواخ. هي منازل مبنية من طين، محافظة على مدخناتها التي تشتغل في برد الشتاء القارس كمدفئات للحفاظ على الحياة ومقاومة القر القاسي الذي يرافق تراكم الثلوج، هذه التي تهبط معها درجة الحرارة قبلها وبعدها إلى الله أعلم به كرقم ودرجة، المهم أن الذكرى تسجل أن (حدو) الذي تمرد في وقت على (القايد)، ولجأ هاربا إلى أدغال (جبل العياشي) قد لقي حتفه متجمدا بسببها. أما أخوه (لحسن)، فقد بترت رجلاه لشدة تجمدهما. ذكرى لا يفقه عنها شيئا، هذا الآتي ليصحح انتماءه ويجسّده معاينة وحنينا.

البرد اللعين (أصميد) باللغة الأمازيغية الأطلسية، أكبر عدو في المنطقة. أما هذا الحر، فيقاوم بالاختباء في ظلٍّ واستغلال فترات نسيم عليل في الصباح أو غَيْم عابر حامل لعاصفة، لأجل التحرك وقضاء الأغراض البسيطة اليومية.

في أيامنا الحالية، أصبحت المنطقة الجبلية، بما فيها تمالوت والقرى المجاورة والمرتفعات المتماوجة مع الشعاب والسفوح والغابة، مسجلة ومرسومة داخل مدار سياحي، تمر منه جماعات السياح ومحبي الكشف من المشائين، وآخرون في سياراتهم رباعية الدفع. حتى إن إحدى القنوات التلفزيونية، حضرت لتصوير المشاهد الطبيعية الخلابة والحركة السياحية، وكذا مشاهد البنايات الطينية

المتدحرجة والمتدرجة مع منحنيات هذا الجبل، والمتقاسمة له مع جهة أشجار الأرز، وجهة الظهر الصخري للجبل، حتى إنه في أيام الشتاء يبقى المنظر عجيبا بين كومة بيضاء وأخرى ظلال أشجار بخضرة داكنة مكسوة بهذه الثلوج البيضاء.

ولا ننسى مشاهد الساكنة المؤثثة للمجال، شيخ كبير متأمل في قرفصاء، على سور حجري قصير في جلسة خلود في هذا الوجود. وحيث لا ارتسامات سوى نظرة بصرية حادة وساكنة، وتجاعيد على الوجه وعلى اليدين كأثر سنوات الصمود بين حر وقر، وشمس وثلج جليدي يحصد كل سنة الشيوخ والأطفال غالبا.

ولا ننسى مشهد امرأة بوشم على ذقنها (السيالة)، ووسط جبهتها بين حاجبيها (العياشة)، مع لمعان عينين وسلاح ابتسامة أنثوية تعطي الأمل في الحياة ولو في جحيم ليالي الشتاء في هذه المنطقة النائية إلا من مرور قوافل السياح، هؤلاء المتفرجين على ألوان، بلا روح ولا إحساس شعور، تجاه رسّاميها من ساكنة الجبل بكل أفرادها.

انتابه شعور غريب، هذا الآتي من الديار الفرنسية والمخترق لعالم روح سكنته ذكرى وتذكير. كانت هي التي أنجبته وأرضعته وسقته أولى الجرعات. هي التي حضنته فتشمم جسدها وصدرها. هي التي غنّت له في لياليه الأولى ألحان الوجود والحياة وصوت الجبل بل صوت الأمومة الذي ينقش به الحياة في

وجدانه ويأمل أن يتفتّح كبرعم مقبل على التورد وعلى الازدهار. لم يكن ليعلم الجروح التي انغرست في فؤادها، لكنه عائد اليوم ليكتشف شيئا ما، روحا ما، حبّا ما.

تُرى هل سيجد ضالّته؟ تعرّقت مسامه واقشعرّ بدنه. لا يعلم أهي مرافَعة سيخوضها أم محاكمة ضمير سيقف أمام سفوح عتبتها. لا يتذكّر شيئا منها. وهل تكون أمّه فعلا؟ لا يدري. تخترقه في لحظته أصواتٌ عديدة، منها ما يعي شخصياتها، أبوه ووسطه العائلي الفرنسي، ومنها ما ساهمت أحلامه في استحضارها الآن وأصبحت من مخزون عوالمه اللاشعورية عموما.

بعد عقود عديدة وكأنها دهر طويل في القياس، ما دامت قد خندقت دواخله بفراغ كبَر كغول يفترس اغترابه الذاتي ككائن حرِم من بيئة أو ظمآن حرم من ماء ارتواء، ها هو يعود ليكتشف شخصيته وطفولته وجذوره المغربية والجبلية. جزء من هويته وتكوينه هنا في تمالوت. ليتهم أتوا به باكرا لكان قد استفاد من هذا العالم الجديد. لكنهم أجّلوا تشجيعه وإخباره قبل كل شيء بمن هو، ومن أين أتى إلى الوجود. لكنه هو الآخر، لم يمتلك الشجاعة والجرأة من قبل. وها هو وسطَ ديار جبلية وشخوص بدا على ملامحها الضعف والهوان. هذا الشيخ الكبير، وهذه المرأة العجوز هناك، وهؤلاء الأطفال الذين يلعبون حفاة ومتربين وشَعِثين...

وصل هذا القادم الفرنسي، واسمه (شارل). تسميته تيمنا بقائد مكافحة النازية التي هجمت على فرنسا ووصلت إلى باريس في نصف العقد الأربعيني من القرن العشرين، خلال الحرب العالمية الثانية. ذاك شارل ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية ورمزها. وشارل هذا مواطن فرنسي، خريج المدرسة الفلاحية بمدينة (بربّينيان) الفرنسية.

في سنه الخامس والأربعين، جاء إلى القرية، صامتا، سائلا عن امرأة تسكن بها، اسمها عيطونة لحسن، والتي تختصر تسميتها في يطو.

عيطونة لحسن، أخت (حدو) و (لحسن)، المتمردين على جبروت القائد، هذا الذي أراد أخذ عدد كبير من رؤوس ماشيتهما، كما أراد عيطونة في دار قيادته لتخدمه. هذا الذي يمتلك من السلطة على الأهالي ما يستطيع به إثبات قوته وقدرته على خدمة مشغِّليه هرميا داخل دائرة دولة مركّبة بين حكم سلطاني وحماية إدرية احتلالية واستغلالية اقتصاديا وسياسيا. وربما هو إذلال مقصود لأجل تلبية متطلباته من الماشية. كانت عيطونة في سن الثالثة عشر. لكنها كانت مشرقة بقامتها وعينيها العسليتين وشعرها الأشقر المائل إلى حمرة.

طفولتها جعلتها خفيفة الحركة، كثيرة الغناء والتسلق للأشجار، والابتسامة الدائمة والتسليم على كل مار. براءة لم تُخْفِها حين الوقوف أمام موكب (القائد) الذي كان ذاهبا إلى رحلة صيد في جبل العياشي الكبير. و(سي القايد) سلطة ورغبة تُحققُهما القوة. همس في أذن (الشيخ) منفِّذ أوامره. لم تمر

سوى أيام حتى جاء (الشيخ) بعسكره أو مخازنيته آمرا (لحسن) و(حدو) بأمر القائد. لم يرضيا بالظلم، رفضا الأمر. تعسف الشيخ الذي يرعى شؤون القائد داخل الجماعة السكانية في دائرة تمالوت بالكلام، وأمر المخازنية بتنفيذ المطلوب للسيد القائد.

أصبح التعسف مع عدم الرضا معركة تحوّلت للحجارة والعصي، كسرت يد الشيخ اليمنى، وأحدثت جروحا بالمخازنية، فاضطر معها حدو ولحسن للفرار إلى مسالك جبل العياشي الغابوية قبل أن يتمكن هؤلاء من استعمال بندقياتهم. وكأن الجبل يعيد تقسيم الروح بين حياة آمنة وأخرى مريبة. جبلٌ لم يرتح بعدُ من نزوح عدد كبير من آيت عياش إلى أحواز مدينة فاس، من ذكرى اتفاق الزاوية الدلائية مع الدولة القائمة في عهدها على جعل الحدود بينهما هي هذا الجبل الشامخ جبل بني عياش أو ما أصبح يعرف بجبل العياشي. وكأنه المنطقة العازلة.

لم يكن الوقت إذا للغنيمة. سيكون لتصفية الحساب وإنزال العقاب. سيحول (السي القايد) الشكاية إلى المسؤول في الحماية الفرنسية وإدارتها. كما سيحوّر فحوى النازلة، ويلصق التهمة بالتآمر على الوجود الفرنسي ورغبتهما في سرقة السلاح ونشر المقاومة المسلحة التي لها علاقة بالمتمردين في فاس ومكناس وقصر السوق:

. سكان بني عياش معروفون بتمرّدهم عبر التاريخ. لا يؤمَنون من طرف أي سلطة.
ما جعل القضية عسكرية، فتجندت فرقة بقيادة مسؤول كبير للبحث عن لحسن وحدو. لم تفلح الحماية في القبض عليهما. لكن الطبيعة كانت قاسية معهما. فبمجرد ما حل فصل الشتاء، وبدأت عواصف الثلج، حتى جاء خبر موت حدو. أما لحسن فقد صمد حيا، لكن الأخبار أكدت بتر رجليه لشدة البرد.

واختلطت الروايات، فكانت الخرافة والأسطورة محمِّلة الخيال في الحكي عن الأخوين بين من بعثهما لحياة ومن جعل لهما سفرا إلى جنوب الصحراء، ومن جعل أكل الذئاب لجسديهما...

عسكرَ الفرنسيون بالقرب من مسكن عائلة (يطولحسن) أو يطو باختصار المناداة. ورغم النازلة، كانت يطو محبة للحياة والحركة، تخرج فتمد العسكر ببعض حليب الماعز والتين اليابس المجفف... عمليات شكر وابتسامات، لعلّها تخلق الشعور بالاطمئنان في تواصلٌ بصري ورمزي، ما دامت اللغة غائبة في الفهم.
فكرُ الطفولة: أشاركك اللعبة، أشاركك صداقة، محبة، أمنا، سلاما، تجربة.

(**روني،**) عسكري مرابط مع فيلقه في الساحة المقابلة لهذه المنازل المتناثرة هنا وهناك، كأنه فريق بحث أثري وكأنهم أصحاب حفريات لم تنطلق بعد.

كان روني، أصغر أعضاء الفريق العسكري سنّا، قد خلق مودة طفولة مع يطو. هي في سنّها الجديد الذي اقتحمته بالكاد أربع عشرة سنة، وهو صاحب الاثنين وعشرين سنة. في سنته الثالثة فوق هذه الجبال الوعرة والقاسية شتاء.

مرت ثلاثة أشهر وأربعة أيام على التواجد بالساحة المسماة: (أسايس). بين الحين والآخر، حوار مع أفراد المكان وأهله، بالخصوص مع يطو، التي اعتادت كل يوم على تبادل كلام بإشارات، تحول فيما بعد للاستعانة بكلمات مفاتيح مثل (أمان)، eau (أكسوم) viande...

اكتشفت في هذا التواصل الجديد الجبن الفرنسي المعلب، والخبز الأبيض (أغروم أملال). أصبحت مقايضة ناجحة رافقها تواصل بشري يصل في بعض الأحيان إلى لعب كرة القدم مع الأطفال الستة الذين يغزون غالبا الساحة "أسايس". تنضاف إليهم يطو في اللعب والمرح والصراخ، يشاركهم روني أصغر أفراد العسكر سنا في اللعبة المسلية والمنفلتة من قانونها، حيث متاهات الجري مع الكرة تختلج الأشجار، وفي بعض الأحيان جنبات الخيام الثلاث المعسكرة، أو سطح منزل يكاد يهوي بالطفل الذي يتسلقه.

ذات صباح، كانت مهمة يطو التعمق قليلا وسط الغابة لاقتناء حطب يرجى يبسه، للاستعانة به في التدفئة، تاركة بمنزلها الأم المريضة التي ازدادت جروحها بفقدان شبه كلي لابنين، مفخرتها قبل أن تحُل مصيبة القائد وشيخه.

تزامنت مهمة يطو مع دورية فردية قصيرة المسافة والمدى الزمني للجندي (روني). وقع ما وقع رغم السن الصغير وكونها قاصر، ما يزال صباها يخالط طفولتها وأحلامها ترافق لعبها البريء. غلبت الرغبة والشهوة في مناخ كابت بقساوته وظروفه وحِدّة مشاكله وخطورته. حين اكتشاف الأم لحقيقة الحمل، كان الأوان قد فات. صرخة ألم جديدة جرحت القصبة الهوائية ولجمت اللسان عن النطق. استفحلت حالتها المرضية، فكانت وفاتها جامعة لفقدان الابنين ومصيبة الطفلة التي ستصبح أماً.

المصيبة كبرت مع كون الفريق العسكري الاستعماري المرابط في المكان قد غادره قبل ثلاثة أسابيع. لمن ستكون الشكاية؟ للقائد وشيخه؟ من سيقوم بها؟ هنا بدأت رحلة الألم المزدوجة والمقتسمة بين الأم التي أصبح مرضها مزمنا لا رجاء في شفاء منه، وبين البنت التي قررت أمها إرسالها إلى إحدى قريباتها للتكفل بالأمر ولتستر المصيبة... وما حلول المشاكل في أدغال فقر وظلام جهل وقلة حيلة؟ ما مصير حَمَل معزول عن قطيعه، متروك لمراعي الذئاب والقطط الوحشية؟

آخر بسمة وفرحة ل(يطو لحسن)، كانت حين احتضانها لمولودها الجديد وهي على مشارف سن الخامسة عشرة. بعدها رحلة جحيم حياتية ليس فيها طعم حلاوة أو حياة.

وسْوَس الشيخ وهمس في أذن القائد الذي التمس طريقا لمقابلة (روني) حين ذهابه لإحدى اجتماعات متعلقة بترتيبات أمنية وعسكرية. لما اكتشف مكان (يطو لحسن)، لما لامس واقعها الجديد، لما شاهد محيط الاستغلال الجنسي الذي ارتمت فيه أو رماها قدر هذا الجحيم فيه، لم يصدق صورة الطفلة التي أصبحت جسد متعة.

وهل احترمها هو كطفلة لكي يؤنب الواقع المرير الذي انتفض داخليا ضده وكشّر بأنفاس متناقضة لمواجهته؟ سيكلفه التأنيب عذاب ضمير ذاتي. لام نفسه واقفا أمام هذا الواقع بشرب سجائر متتابعة أحدثت احمرارا في شرايين وأوردة عينيه، وسحقا عميقا في أمعائه. كلها توترات لم تشفع له في كونه سبب الفجيعة.

نفس الجبهة ونفس الأنف، طفل في شهره الخامس، فطرة غرست التفكير في المجهول لهذا النازل الجديد. طفلة تحولت إلى أم، وبترويض وحوش إلى مفترسة جديدة بوهم قدرتها على الانتقام من القدر. لكن، أمام حضور (روني)،

جمّدت كل صراع مع القضاء والقدر، منتظرة أي قرار سيكون من طرف من شاركها وسبّب لها في صناعة هذا القدر الجديد بنعمة مولود وجحيم واقعه. ولا تواصل أو تجانس بين الطرفين. لا لغة مشتركة جامعة، لا ثقافة، لا مصير. بعد وعد بالعودة وإيجاد حل لها ولهما، ترك بعض نقود وطمأن بابتسامة ومسحة يد عسكرية تحس معها بقوة الرصاص الذي يصبح أداة عطف وحنان. سوريالية القدر، الكل في خضمها.

عاد (روني) إلى القرية الجديدة المنتشرة منازلها على مسار الطريق الجبلي الملتوي مع منحنيات وعِرة، والرابط بين جهات حيوية من البلاد. رافقَهُ مسؤوله في فريقه العسكري الجديد. مناخُ المرحلة استعدادٌ لمغادرة هذه البلاد بعد أن حصل المغرب على استقلاله، وبعد عودة الملك محمد الخامس من المنفى، ليبدأ منفى آخر للطفل الجديد الذي سيصبح حاملا لاسم (شارل). تسمية جديدة لمولود (يطو لحسن)، والتي ترددت في تحديد اسم له، مرة باسم أخيها حدو، ومرة باسم أخيها لحسن، ومرة راجية حلولَ العسكري للأبوة والأسرة في أن تكون بديلا منطقيا لكل هذه الافتراضات والخيارات، تناديه بابن روني.

ضغطُ القريبة المستغلة، وضغط الواقع المتردي وطمع المال الذي تكون رؤيته كدواء لقلوب متشققة بقساوة عيش، كلها أمور استغرقت الأربع ساعات لا أكثر. عاد فيها روني بالطفل الصغير بين يديه في شهره الثامن والنصف، ليوضع بين يدي زوجة رئيسه العسكري العاقر، لتبدأ عودة الاستعمار من حيث أتى. لكن، وبعد أن أخذ ثروات وخيرات، ها هو ينتزع فلذات الأكباد، ينهش قلوبا من صدورها كمن ينهش أرواح موتى من مقابرها ويجتثها، يغادر

البلاد لتبقى (يطو لحسن) لقدر الحياة الجديدة، والذي تعيش عليه فئات كثيرة ممتدة في البلاد، إنما هي تعيشه بقدر، زائد بلا قلب ولا إحساس، انتُزعا منها قسرا وقهرا وقدراً.

رحلة الجحيم إذن تجلت في كوابيس الحرمان من الأمومة المغتصبة، انتقلت من بركانها الليلي إلى مرافقة يقظة. كلما اختمر وعي جديد بالحياة كلما كبُر هَمّ فراق الابن وهَمّ موت الأم في قريتها، وهَمّ التفسير المتجدد في الاكتمال حول موت أخويها، الأول بردا والثاني مرضا، وهَمّ للانتماء لبلد جديد اسمه المغرب، بعد أن كان عالمها فضاء جبال العياشي، وكانت جنتها هي (تمالوت) الممرات الخالدة بظلها ومائها، وغابات الأرز التي كل مرة تكشف لها من موسوعتها مخلوقات جديدة وعجيبة أو نباتا يحمل أسرارا في رائحة أو شفاء...

كان تعلمها للغة العربية كلغة تداول دارجي مرتبط بثقافة الاجتماع والاقتصاد الجديدة، والتي اكتشفتها كعالم نموذجي بقيمه لا قرين له آخر لمقارنته به والحكم عليه. فالدعاء للإله حاضر في استحضار الزبون والانفلات من غضب القائد والمقدم، والنجاة من ويلات وجرائم سهرات الخمر التي يبدو أنه لا مفر منها في هذا العالم الفريد. خمر ودخان ومخدرات وكِيف وجنس ورقص وموسيقى

وأكل، مرة يكون أكلا شهيا يحضره الزبائن، ومرة يكون خبزا وزيتا يفرضه زمن الركود لأيام تلو أخرى.

قيَمُ هذا العالم الجديد فُرضت على يطو لحسن. هكذا احتفظت في هذه المرحلة بهذه التسمية مستعينة بحضور الاسم الذكر في ندائها، لعلّه يوفر أمانا لها في تعامل الآخرين معها، خصوصا إذا كان التساؤل حول الاسم، فيتحول الجواب إلى بطولة في الحكي، مَنْ وقف في وجه القائد، من لطم الشيخ وحارب المخازنية، من اتخذ الجبال عالما لرفض الفرنسيين ومن معهم؟ مرة تنتهي الحكاية بذكر موته، ومرة يُحافَظ على بقائه حيًّا، ف(يطو) ما زالت في حاجة إلى ظل أمنه في كل لحظات حياتها، هي: يطولحسن.

نقطة واحدة بقيت كرة ثلجية تغص في دواخلها وتجمد ما جاورها، هي قصة حملها وولادتها واغتصاب طفولتها ثم أمومتها. غابت القصة خلال هذه المرحلة من حياتها بتواطؤ مع قرينتها ووسيطتها ومحتضنتها في هذا العالم الجديد والفريد.

عالم الطفولة
وجنة يطو لحسن

عالم خاص رسمته في ذهنها، نسجته حكايات الأم والجدة والقرية. حينما كانت تستيقظ صباحا كطفلة وتقف بين فتحتي الباب والجدار، ترقب عيناها ليس ببعيد عن منزلها، حزام الأشجار السامقة. كل صباح تتصور رؤية عيني الذئب (اوشن) متربصتين بها دون غيرها، في مكان ما من المواقع المدلهمة وسط الغابة، رغم إشراقة نور الصباح وأشعة الشمس الجديدة التي طلعت من بحرها الذي انطفأت فيه أمس ليأتي الليل لكي ينام الناس ولكي تغمض يطو عينيها وتسمع الحكاية المغناة التي تنشدها لها أمها كل ليلة غالبا.

استطاعت خلال سنوات طفولتها أن تكتشف أسرارها كثيرة لهذه الغابة. لكنها ما زالت أطيافا وأشباحا مختبئة لا تستطيع المغامرة فيها بوحدها إلا نادرا بالموازاة مع أهل القرية المنتشرين بالنهار هنا وهناك، والمتجاوبين بالألحان والمواويل التي تخلق جو الأمن وتشعر بالرفقة وتحضر لأي شيء مباغت. فهي لا تنسى يوم صاحت جارتهم بين أشجار الغاب النجدة، النجدة (بِيبِيوْ، بيبيو)... مطالبة بالنجدة لما رأت خنزيرا بريا مجروحا آتيا تجاهها... لم ينفعها إلا تسلق شجرة، من حظها أن لها فروع أغصان كدرج تسلق سلمٍ. نجت من بَرّ مهدِّدٍ ومن هجوم هذا الخنزير المنتسب له، واستمر استنجادها إلى أن أتى الرجال جماعةً صارخين بأصواتهم وعصيهم. ما أفزع الحيوان (ءادران) المتمرد والهائج فاضطره فزعه للهروب بعيدا.

لكن أسرارها الجميلة والتي ترافقها في أحلامها (تاووركيت) غالبا، هي ممرات الوادي و(تمالوت)، تلك الجبال الظليلة . مع التصغير للظل باللغة العربية . ، تلك الجبال المتقابلة، وكذلك غارها الذي تصعد له برفقة أخيها، والمطل على سفح الوادي، تبني فيه قصورها وفضاءها المتخيل بفضل الأحجار المتواجدة هنا وهناك وعيدان الصنوبر وأوراق الأشجار...

كم من الحيوانات اكتشفتها من منبر غارها منادية على أخيها لكي يساعدها على ترجمة المشاهد إلى تسميات وعبارات تشرح طبيعة ونوعية وخُطورة هذا

الحيوان (ءادران) أو أُلْفته... لا تنسى أيام الربيع، رغم أن فصل الربيع يتأخر ظهوره في أعلى قمم جبل العياشي، ففي الوقت الذي يكون فيه الناس يحصدون في السهول تكون النباتات بارضة ومتبرعمة في الجبال.

كان اليوم احتفاليا، حيث تخرج عشرات النساء والفتيات لغسل الصوف والأغطية والحنابل. وما دامت المسافة ليست ببعيدة ولا بقريبة، لابد من حمل أثقال هذا الغسيل فوق دواب. تحضر الأناشيد كما يحضر الصغار. وترافق الكلاب هذا الموكب المتجه صوب الوادي الذي لابد من نزول منحدراته حتى تستطعن الوصول إلى ضفافه. رغم أن الساقية العذبة تمر أمام القرية، فغالبا ما يتركونها للسقي ولأجل الشرب والطبخ والأغراض المنزلية الأخرى. أما الغسيل فيحتاج إلى مياه عميقة وجارية بسرعة، وإلى صخور ملساء لنشر الأغطية فوقها والإسراع في تجفيفها... على أن أبراج المراقبة التي تحمي موكب النساء موجودة ومتفرقة هنا وهناك. فشباب القرية القليل، جلّه منتشر بين قمم وشعاب هذه الجبال الكبيرة.

في عمرها القصير، وطفولتها البريئة، وأحلامها الكبيرة، كانت يطو تستيقظ آتية من أحلام افترشت لها سريرها، وفتحت لها آفاق عوالمها وخيالها. تستعين بمحكي محيطها فتنطلق لنهار جديد ولعب تحتضنه أشجار الغاب القريبة والمتأتية لرؤية المنزل ومن سيدخل أو من سيخرج منه. قد يتبعها المألوف من حيواناتها، وقد ترافقها دندنات أغانيها وصوتها الناعم.

هي جذوع الشجر وقد أدمعت بصمغها، تحاورها وتدعوها لعدم البكاء. تجمع ما تيسر لها من الأزهار المتفرقة هنا وهناك، بحسب الفصول طبعا تغتني لعبتها وتتلون شجرتها في بهاء. قد تجعل لجذع ما ورقا طويلا بجانبيه:

.كن أنت العريس !

فتحرمه من الألوان الزاهية الصفراء أو البرتقالية أو الحمراء، وتكتفي بوهبه وريقات خضراء تغطي بها شقوق لحاء الشجرة وتمنع سيلان الصمغ هنا أو هناك.

وغالبا ما يكون حظ العروس ألوانا، بل وكذلك فستانا تجعله من أغصان مورقة أو فروع مهملة بعد تساقطها فوق تربة الغابة الجبلية. وتعِد العروسين بحفلة قد تدعو حيواناتها الأليفة للمشاركة في الرقص فيها على إيقاع أمازيغي وفطري بريء.

هي ذي يطو وقد تطورت شخصيتها بما تيسر لها داخل بيئتها. ستكون عزيزة ومحبوبة عند كل سكان القرية، بمن فيهم شبابها الذين يقومون برعاية ماشيتها وجمع حطبها أيضا.

في بعض الأحيان تجدها تجمع بين اسميْ شابة وشاب من القرية في لعبها الاحتفالي هذا. قد يسترق البعض بفضولهم عالمها فيسألونها عن العريسين الجديدين، قد تحتار في اختيار اسم ما، خصوصا إذا كانت قد نسيت ذلك في بداية حفلها. ربما فأل البعض بمن ستجعله يطو مناسبا بين جنسين، بين

اثنين، بين شاب وشابة. كان حلمها إذا معتبرا ومتتبَّعا من طرف الكبار. وطبعا، ورغم أنها ما تزال صغيرة على جعل اسمها داخل اللعبة وتوزيع دور جديد بينها وبين من ستراه مناسبا لها داخلها وفيها، كان القدر متابعا لها ومُعِدّا للمفاجآت.

(**موحا العياشي**)، هوالمكلف برعاية وحراسة حوالي مائة رأس من الغنم والمعز. نادرا ما يكون داخل القرية لكونه يبيت بجوار قطيعه الذي يتخذ غيران عميقة وصخرية الجدران مأوًى له. بابُه أشواك نباتية يابسة وملتوية. ثلاثة كلاب حراسة شرسة لا يبخل عليها من طعامه، حتى إن له لغة خاصة مع هذه الحيوانات الأليفة... مفخرته في سحر تجاوبه معها، عالمه الخاص الذي لا يعلم أسراره إلا هو.

يتكلف موحا العياشي بذبح أضحية توزع بعد شوائها على كل الحضور من صغار وكبار، حتى رعاة الأغنام والمعز الآخرين من أبناء القرية، يأتون لهذه الوليمة. يكاد الجميع ينتظرها سنويا. تمتزج الروايات فتصبح ملحمات للحكي في الأوساط الأسرية. أصبحت بالفعل العيد الخاص لموحا العياشي للاحتفال ولإشراك من عانقوا الطبيعة والوادي وملؤوا فضاءهما بروح الحياة (تودرت) وبالغناء ولعب الأطفال... النهار مشمس (ءاسامر)، ومناسب لانطلاقة فراشة (ءيميل) وجعل القصبة للفروسية (تامنايت) ومعانقة الحرية (تيدرفيت).

هي سعادة الإنسانية (تومرت ن ءيمادان). أهاجيج وأغاني وأناشيد الأطفال خلال الجري واللعب.

لا تستطيع يطو لحسن ترك النسيان يُغيب أجمل اللحظات في الحياة، حتى فقدان الذاكرة لم يعد له سلاح لتحقيق هذا النسيان. أجمل لحظات الحياة هي طابع السعادة الذي يخترق قلبك، يدعوك للاستمرار، لتغيير الحال إلى حال أفضل.

نساء القرية يعلمن جهد (موحا العياشي)، وتضحيته من أجل القرية، وابتعاده عن أهله. هو مرسولها للغابة والطبيعة، مبعوثها الذي تنتظر ما يأتي به من أعشاب بعيدة المرعى والمنبت، ما يحمله من أخبار مجاورة، ولو كانت أخبار سرب طيور مهاجرة، حطت الرحال في أيام من شهر أبريل أو ماي على مدار وفوق بحيرة من البحيرات التي تعمر لِكمْ من شهر في السنة حتى فصل شتاء جديد وتسرّب وذوبان ثلوج جديدة.

في ذلك الصباح من هذه الاحتفالية الاجتماعية التي تستحضرها ذاكرتها كرأسمال شخصي وهبته أيام الربيع لروحها ووجدانها، تكلفت يطو لحسن بتقديم جلابة صوف جديدة وحذاء جلدي مستعمل اشتري من الباعة المتجولين الذين يمرون بالقرية. هدية أسرة لحسن وحدو لموحا العياشي في هذا الفصل. وكم كانت فرحتها كبيرة لما أهداها ضأنا جبليا صغيرا تركته أمه في

هجوم طائفة ذئاب، خوفا عليه منها، لكن في رعاية القدر الذي ساق موحا العياشي له، فرعاه لأيام قبل أن يكون الحظ من نصيب (يطو لحسن) في أخذه هدية، في خلق الحدث داخل القرية، في تجمع الكل حين العودة إليها، كأنهم يحضرون ل(سيرك عمار) للحيوانات والذي اشتهر بعروضه عبر ربوع البلاد، في تغير ألوان ونظرات عيون الكلاب الأليفة، ما اضطر الحذر من طرف الجميع والخوف على هذا الخشيش الضائن العجيب، هدية جبال العياشي وموحا العياشي لسكان القرية.

كان سن يطو آنذاك ست سنوات. طفولةٌ عالمها طبيعة وحنو أمومة ولعب فطرة وخشيش ضأن هدية.

هل نعيش الجنة والجحيم في آن واحد داخل هذه الحياة؟ جنة ضأن صغير اخترقها الذئب، واخترقها القائد، واخترقها المغتصب للطفولة، واخترقتها المستغلة للأنوثة في دعارة وأبواب جحيم عميقة وخطيرة لم يتم حكيها بعد؟ تحول فيها كلٌ إلى الأول (اوشن). حمل الكل رمزه. أصبح الكل (اوشن)، اوشن هو الخوف، اوشن هو الألم، اوشن هو المرض، اوشن هو الشر.

في لحظات المرض المريرة التي رافقتها الهلوسات الحمقاء، كان لسان حالها وخطابها وجوابها: اوشن، دائما على طرف لسانها. كان اوشن كل المعاناة وكل لحظات الضعف والاستسلام لقدر المحن التي مرت عليها. كان لابد من لحظة المرض والصراخ والخروج عن لحظة التوازن المفروضة اجتماعيا. بعدها، بعد

العاصفة المقتلِعة لما ترسب في الأعماق، يكون الهدوء والسكون والراحة. تكون القدرة على النوم، والطمع في حق حلم سعيد، والذي سيكون بحضن هذا الغزال الصغير.

من سيحكي قصة حياة (يطولحسن) في جزء منها؟ تُرى، من واكب هذا الجزء الخفي من حياتها، والذي عاشته بعيدا عن قريتها، وبعيدا عن قرية قريبتها التي وضعت فيه مولودها، والذي شهد أول دخول لها لعالم الجحيم هذا؟

قبل هذا المجيء المفاجئ والسريع ل(شارل) بسنوات عدة، كانت زيارة تفقدية قامت بها امرأة من ضفاف نهر أم الربيع ومن بلاد مقاومة موحا وسعيد، إنها (يزّة)، الشاشة الأخرى التي يمكنها حكي مسار حياة يطو لحسن بصورها وظروفها وحقائقها.

الرغبة في تكوين اسرة

هو مسار حياة عرف جميع الزوابع، الفصول المتقلبة والقاسية مثل قساوة الثلج والبرد، والفصول الناعمة والهادئة، رغم أن هذه الأخيرة كانت قليلة في حياتها بالمقارنة مع باقي نساء هذا العالم.

لم تكن يطولحسن تفكر في يوم ما في وضعِ زواجٍ بالشكل الذي عاشته، ولكن، هي الحياة قد تكون هي ما يقحمك في أقدار لا خيار لك فيها. هي الحياة نسبية في عطائها، قد تكون كريمة في مرحلة وبخيلة في أخرى.

دائما سننتظر رفيقتها في أهم مراحل حياتها لكي تحكي لنا عالم يطو لحسن المنسوبة إلى جنة تمالوت كما تقول هي في نوستالجيا وحنين ذكريات طفولتها

دائما. هي من سيحكي لنا ما جرى، وكيف جرى. فمن هي رفيقتها في هذا الدرب؟ من هي يزّة؟

قصة امرأة، أمّ، مسؤولة وساهرة على رعاية أبويها وابنتها. كانت يزة تقطن بشقة سفلية أرضية ومظلمة نوعا ما. حتى الحي السكني والدرب فهو مكتظ وضيق. حتى إن ممر المياه العادمة مكشوف، عبارة عن مجرى متاح للشم والرؤية بالسمع والبصر. يُذكر هذا الوصف بما علق عليه الأستاذ الخلفي الذي روى للأستاذ محسن حكاية يطو لحسن: هي الشفافية الوحيدة الموجودة عندنا !

يزّة ، امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها. تنحدر من قرية جبلية، تزوجت صغيرة في سن السابعة عشر، أنجبت في سن الثامنة عشر. الآن، ابنتها قد ولجت المدرسة. أبوها، أصبح مقعدا في المنزل بسبب المرض وضعف الجهد قبل أن تلتهمه يد المنون، فقد تراكم الشقاء على محن الحياة وغدر المحيط واستغلال الآخرين لجهده وثقته. يحتاج كل مرة إلى كشف طبي ودواء، وبحسب الحال المالي، يخضع للعلاج أو الصبر والشفاء بإرادة البقاء ومقاومة الألم. فليتدمر ما يتدمر بالداخل من خلايا وأعضاء، المهم هو البقاء على قيد الحياة، وهذا أضعف الإيمان إلى أن يلفظ آخر نفَسٍ تمنّه عليه هذه الحياة.

أم يزّة، جسد نحيف وصلب صلابة الصخور الجبلية المحيطة بقريتهم والمواجهة للرياح الباردة والصقيع وأشعة الشمس القوية. هي التي تهتم بزوجها المقعد في زاوية من البيت، وهي الأم المباشرة يوميا لحفيدتها، هذه الطفلة الصغيرة، في نظافتها ولباسها ولعبها ودراستها في روض الأطفال ثم في المدرسة، مادامت يزّة في الغالب تأتي في الصباح الباكر، أو في وقت متأخر من الليل.

وكان طلاق يزّة حلاً مع زوج مدمن على (الماحيا) هذا الشراب المتاح بثمنه البخس للجميع، عاطل عن العمل، متمرد على الحياة الأسرية. عاينت يزّة حلول الفقراء والضعفاء للخروج من الحرمان والتشرد ولتوفير ضروريات العيش، أدنى متطلبات الكرامة الإنسانية: مسكن . ملبس . مأكل . مشرب.
قاومت في البداية إغراء النساء المتخصصات في الوساطة الجنسية، وتوفير أماكن الرغبة والشهوة لكل طالب لها. وهذه تجارة وطريق كسب رزق يعيش منها الكثير داخل مجتمع يزة. فالضرورة تبيح المحظور والممنوع.

كأم، قاومت غيرة المرأة التي بداخلها، والتي تجد عند قريناتها اللباس الجديد، والقفة الممتلئة أسبوعيا في السوق بالخضر والفواكه واللحوم، واقتناء بعض الأساور الذهبية... وتلك لعبة نسوية.

كانت يزّة صامدة صمود أمها، وصمود الأحجار المقاومة لبرودة الثلوج فوق الجبال شتاء، وحرارة الشمس التي ترغم أكبر المخلوقات مقاومة للحرارة على الاختباء منها أو البحث عن ظل يقي من لهيبها صيفا. وكما قال أحدهم مازحا: (بلاد الحنش سخفان والطير عدمان). أي لا يستطيع الطائر التحليق في سمائها، فكيف للإنسان؟

كانت الصدمة حينما وفّر الزوج عديم الهمّة نقودا، حينما اشترى فواكه ولحوما وقنينات خمر، وقضى ليلتين في إحدى بيوت بائعات الهوى مستقبلات كل صيد ثمين، واللاتي تعرِف عنهن يزّة كل شيء، ما دام اللقاء الأسبوعي في السوق أو في الحمام العمومي أو في باب المنزل والحي، ما دام النسيج المجتمعي متداخلا في العلاقات وأشكال الجوار. يتعايش الكل ويعرف كل واحد عن الآخر أسلوب حياته وخصوصياته. ويكون الاحترام لهذه الخصوصيات بقدر المسافات اللازمة. كل هذا عاشته يزة خلال مرحلة زواجها، أما ما أتى بعده فواقع آخر.

كيف يعقل للحرمان أن يبقى صامتا أمام هذا البهتان والإسراف والخيانة؟ كيف يكون جزاء الصبر هو الوخز الموجع؟ انفجر الصخر الصلب، دوّى صراخا وانهمر دموعا، بكل ما أوتي من قوة داخلية. أرادت تفريغ غضبها ضربا

ولكما وقمشا وإشهادا للعموم على ما لا يقدر إنس ولا جان الصبر عليه. لم يعد جسدها يعرف شعورا بالألم، رغم اللكمات والركلات القوية التي وجهها لها زوجها. كانت معركة الموت والحياة. بقيت الطفلة في زاوية من البيت صامتة، شاهدة على لون الحياة الرمادي المنحبس دموعا متحجرة في عينيها تحجر أمها وجدتها.

مارس الزوج رجولته التاريخية. بعد أن انتحر طبقيا لليلتين، شعر بأهمية قراره وقدرته على تبديل حاله، متوهما السيادة بينما هو هارب من واقع مُزر إلى جحيم مجهول وبديل معدوم. أقسم بتطليق زوجته وعدم الرجوع إليها والإتيان بمولاتها وسيدتها جمالا ونعومة. طبعا لا زال نعيم السهرة والشهوة مدفئا جسده وفكره ولسانه. ما زال ممتلكا لإشباع يعينه مسافة تحدٍّ نفسي وسلوكي لمدة أخرى من الزمن. لم يعد يحتمل هذه العيشة الضنكة:

. أنت طالق، محرمة علي، غدا نمشي للعدول.

انهارت القوى، انقلب التمرد على الخيانة لطما على الخدود وقعودا ملازما لأمنا الأرض وببكاء طفلة صغيرة. وجمهور الحي، يتابع إحدى مسرحيات هذا المجتمع، الممثل الكبير.

ذهب الزوج ولم يعد. لا هي طالقة مطلقة طليقة، ولا هي زوجة مستقرة. انغرس الجرح على الجرح على الجرح، على الجروح إلى ما لا نهاية... ازدادت مواساة المحيط، إغراءات الوساطة، ضرورة توفير لقمة العيش. كان دور الأبوين في المؤازرة. أب مريض ومسن، وأم مسكينة أمية صامتة. أصبح الذي يحتاج للمؤازرة مسؤولا عن واقع توفير هذه المؤازرة. بدأت تنقضي بعض مساعدات الجيران وكذا الوسيطات والطامعين في هذا الجسد الذي أهمل نعومة شبابه وحسنه، والذي سيكون شهيا بمجرد طلاقه.

كيف للصخر أن يذوب ويصهر؟ لكن يزّة إنسان له قوته وضعفه. اختلط عندها كل شيء إلا الجنون. فعقلها صامد أمام اسوداد الجفنين. إرادتها في الصمود ترجمةٌ للحفاظ على أبويها وطفلتها.

ذاب الصخر وانصهر. هدأ البركان، فوجد بنية نفسية جديدة ووضعية جديدة وتعايشا مع الحال. لا صنعة لها ولا حرفة ولا تجارة، لا تعلّم ولا نفقة. هي المسؤولة إذا على هذه الأسرة الجديدة:
ـ أنت الآن يا يزّة (هجالة) ـ مطلقة ـ ، لا لوم عليك إذا ذهبت مع من يعطيك بما تنفقين به على أسرتك.

. صوتك جميل، كم أشعرتنا وأطربتنا. ولا رقصتك، فإنها تهز كيان النساء قبل الرجال.

هي الوسوسات والإشارات التي هيأتها لعيشها الجديد. حتى نظرات الرجال تغيرت. أصبحت التحية بالعيون الجاحظة المبتسمة، وأصبحت الهدية للطفلة الصغيرة كلما مرت مع أمها بجانب دكان أو بائع خضر أو لحوم. ألفت الاعتبار الجديد من طرف المحيط، ذوّب فيها العناد.

ذاب الصخر، وارتمت يزّة في واقع جديد فرض عليها بيع الجسد والرقص والغناء. أخذت مكانة اجتماعية جديدة. أصبح الاهتمام بيزّة واحترام من نوع خاص لابنتها (تودة).

استطاعت ضمان تمدرس ابنتها، وأدوية لأبيها، ونقود لأمها المسيرة للبيت الجديد، كاتمة أسرار يزّة ومضمدة جراحها القديمة والجديدة.

لا زال حكي يزّة مستمرا. فهي ليست شهرزاد التي احتضنها عدد الألف ليلة وليلة كما في الحكاية، لتخرج من جحيمها وتجد مخلّصها. جحيم يزّة عُمر مستمر ودهر بأكمله، منتقل من جيل إلى جيل حيث يعشش الحرمان والاستغلال والفقر والجهل وإهانة الكرامة والبيع في سوق النخاسة والنجاسة. سبحان الله، نقطة فوق الحاء أو تحتها بين النخاسة والنجاسة تعطي المعاني

المناسبة لسوق جحيم (يزّة) الفريسة المنسية في الالتهام والافتراس عبر تاريخنا الطويل.

إذا كانت هذه حياة يزّة المرسومة بأهم الأحداث المشكلة لشخصيتها الجديدة والتي أصبحت صلبة ومقاومة لكل التحديات ومكسرة للقيم التي عانقتها في طفولتها، تُرى، كيف سيكون لقاؤها مع يطو لحسن؟ كيف سيكون تأثيرها على شخصيتها ومرافقتها لها في دروب الحياة، خصوصا وأنها من حضر زواجها الذي عاشته وحضر حقبةً قبله وبعده؟ حتى إن الناس في مرحلة يتحدثون عن شخصين زوجين بمعنى الرفقة التي لا تفارق، (يطو) و(يزّة)؟

العالم الجديد:

كيف تصبح امرأة في منتصف عقدها الثالث مثقفة البلدة بالشكل الذي يجعلها تعي وتعرف أسرارها وخباياها وسياستها في دهاليزها. تمتلك سلطة متحكمة في قرار رجل السلطة والأمن والقضاء وحتى الدين. أيكون كثيرا ومبالغا فيه هذا الوصف؟ على العموم النسبية حاضرة فيه، و(يزّة) على وعي بخطورة ما تغامر فيه من خطوات. إنما لم تكن هي التي اختارت نعيم هذا الجحيم أو جحيم هذا النعيم. فهي لا تميز بينهما. قد تكون عيناها، واحدة تبتسم والأخرى تبكي، وكلاهما ممتلئتان متفجرتان. لقد كان قدر الأشياء والأحداث، وقدر هذه الشخصيات أن يصبح أراجوزا بين يديها تحت مخالب أصابعها، كل هذا النفوذ داخل مملكتها. وأي مملكة هي !

لا نعتقد أن ما صارت له (يزّة) عالم عجيب غريب. فهي أدوار تعيشها المجتمعات والشخصيات. وكم استنتجت هي بأن هذه الحال من تحتها نار خامدة مثل بركان، قد تحرق كل شيء، أن هذه الحال لها عِبر كثيرة عاينتها

من متقاعدات عن معارك هذا الميدان الذي توجت فيه بطلة وأيقونة. متقاعدات، منهن من أنهكها مرض عضال أو فقرُ حال بسبب إفناء كل شيء في ثقة عمياء تسمى الحب، أو في إدمان على ليالي خمر أصبحت تسري في عروقهن كسريان الأيام عبر الزمن، ليل نهار.

مثقفة البلدة، جلساتها أصبحت ملفات تعرف أين ومتى وكيف تعرضها وتكسب أوراقها ربحا، بما تملكه من وسائل جعل الافتتان والإعجاب من طرف جمهور عريض داخل مسرحها، وبما احتضنته من نقاط ضعف الأعيان وأصحاب الحال وأسرارهم التي تُحكى وتُسكب مع جرعات خمر أو عالم سرير بين أحضان (يزّة) ورفيقاتها، ومنهن صديقتها الجديدة (يطو).
كانت الأسرار هي ذلك الورم الذي يتسرب إلى كيانها كل حين بجرعات زيادة. ورم منفلت عن كل تحكم يفصم شخصيتها ويجعلها في حاجة إلى توازن متجدد يوميا حتى تخفف من التوترات التي يحدثها. كيف ل(يزة) أن تراقب تفكيرها وكلامها وبوحها وحالات انفعالها، حتى تستطيع عدم ارتكاب ما يعود عليها بالضرر وعلى مكانتها الجديدة بالأذى أو التراجع عن مكاسبها واحترام الآخرين لها؟ ذلك عبء حقيقي أخذ يكبر ويكبر: أسرار الناس وأسرار البلدة جمرات جحيم في نعيم فؤادها !

حكاية انتقال يطو إلى بلدة يزّة، واكبت ونتجت عن سوء العلاقة بين يطو وقريبتها. المال والذهب والغيرة سبب كل شيء. لما رأت قريبتُها استئثارها بحظ في جلب الزبائن وكرمهم معها، ضايقتها في المساومات، منطق هذا العالم الفريد، لا عاطفة تسوده. انفجر صبرها، رافقت إحدى عشيراتها إلى بلدتها التي هي بلدة يزّة أيضا. استقبلتها هذه الأخيرة واحتضنتها. وطبعا، كان الاحترام متبادلا وحاضرا بينهما. كما كانت قيم إنسانية حاضرة بينهما مستشعرة لهما بالاشتراك في كونهما ضحيتان لهذا المجتمع وهذه الحياة.

حينما يسمع الناس عن (يطو و يزّة) يقولون إنهما أختان. تشابه في العينين ودرجة الجمال،، وفي السن. سكنٌ مشترك، حيث جعلت يزّة منزل أمها وابنتها، وقد مات الأب رحمه الله تعالى، بعيدا عن منزل عالمها الذي أشركت يطو فيه معها، وجعلتها مقيمة فيه.

بداخل كل منا إنسانية فياضة. لكن واقع المحيط يحول دون تحقيقها. إذا كان المحيط عالم غاب يسوده الافتراس والغدر والغصب، فكيف بقيم منحدرة من عالم الجنة حيث لا صراع. تتضرع للإله في السماء، فلا صفاء إلا في هذه السماء فوقنا. أما الأرض فزوابع حياتية. لابد لها أن تخوضها بمنطقها.

ما يعرفه الناس عن يزّة أنها ابنة على طبيعتها في طريقة كلامها، في ابتسامتها لسكان حيها، في عطفها على فقرائهم ومرضاهم، في زيارتها للترحم على أبيها وأقربائها الميتين وبعض أولياء الله الصالحين، خصوصا في عاشوراء، في احترامها للطقوس الدينية في المناسبات وإخراجها للصدقات. وعندما يكون الحال ميسورا جدا، وهي في حاجة إلى شفاعة سماء في قضية ما أو مشكل مطروح، تُخرج قصعات الكسكس إلى باب مسجد البلدة. كل هذا يجعلها تميز وتفصل بين العالم الديني والاجتماعي والعالم الخاص بها وبمهنة رزقها. ف"الهجّالة" في ثقافة مجتمعها طبيعي أن تخرج لكسب رزقها بالشكل الذي عليه يزّة وغيرها ما دامت مطلّقة بدون زوج. وهن كثيرات على هذه الحال.

هي الدبلوماسية حاضرة طبعا، براعة في إنجاح جلسات السهر، نجومية فنية في ليالي الحفلات بالرقص والغناء، حيث أصبحت فنانة كذلك، شيخة بمصطلح البلدة والمجتمع. حضورها في الساحة أمام قيادة البلدة مع العشرات من الشيخات وأداؤها معهن لرقصات وأغاني شعبية ومحلية في مناسبة عيد العرش، الكل يتطلع لسماعها من الكبار والصغار ومشاهدتها فيها. فالفن يخترق جميع الأذواق، لا يعرف فوارق طبقية أو أخلاقية.

وكما أنه رفع القلم عن المجنون والنائم، رفع كذلك عن الشيخة. فالمجتمع في توافق على الاعتراف بدورها الاجتماعي والثقافي. يتعامل مع شخصيتها بمسافة

تقدير واحترام. وكذلك بمسافة ولع وعشق متفاوت في التعلق بها، بين محب لصوت غنائها ورقصاتها والإثارة الأنثوية والهوية الفنية المشتركة الحاضرة في كل هذا . ويشترك فيه طبعا الرجال والنساء وحتى الأطفال والشباب . وبين محترق لعالم يزّة ومعها رفيقة الدرب في الاحتفالات والسهرات والعلاقات. والحديث هنا عن يطو لحسن التي أصبحت هي الأخرى "شيخة" مثلها. إنما هذه من منطقة جبل العياشي ويزّة من قصبة موحا وسعيد، المقاوم الذي دافع عن كيان هذا المجتمع والذي لا يكتمل ككيان إلا بفنه ورقصه وهويته الثقافية.

ما زالت تعليقات ذلك (البيضاوي) الذي كان يأتي من العاصمة الاقتصادية الدار البيضاء، دفاعا عن الفن والسهر والمتعة، يقول فيها . وهي حاضرة في ذهن يطو ويزّة كل مرة ورد الحديث عن البيضاوي (ذاك الهبيل) كما تعلقان عليه مازحتين .:

. اسمعوني جيدا: الفن والنغمة والجلسة، كل شيء جاء من الجنة. نحن سرقنا جلساتنا هذه من الجنة. لهذا يبيع الواحد البقرة والضيعة من أجل الزهو والنشاط.

وتتعالى القهقهات تعليقا على كلام البيضاوي الأهبل .

ما كان مطلوبا من يطو ويزّة، في عالمهما، هو النجاح في تدبير هذا العالم، اليومي منه والأسبوعي والفصلي والمناسباتي. وهي عملية صعبة قد تخلق

المشاكل والتنافس والصراع بين الزبائن أو حول فرصة اغتنام السمر والسهر مع "الشيختين": يطو ويزّة.، حيث تصبح توازنات المنافسة القوية حول كسبهما وجعلهما محظيات بعلاقة خاصة وسمر خاص بهذا دون الآخر، تنافس يتصارع حوله أصحاب المال والنفوذ لكي يبرهنوا على فتوّتهم وفحولتهم وقدرتهم على تحقيق الذات في الشهوات وفي جلساتها المنظمة جدا.

الفرق بين الشخصيتين هو اندفاع ابنة البلدة في مجموعة محطات وعلاقات، وحذر تلك المنحدرة من جبل العياشي وسلاحها في الوداعة والسماحة وعدم المناورة في المعاملة. ذلك أنها مستأصلة اجتماعيا، لا حامي لها قبَليا ولا أسريا. كانت هذه الميزات عندهما تخلق التوازن خلال كل مدة عشرتهما التي استمرت لأزيد من ست عشرة سنة. وهي ليست بالمدة الهينة ولا النهائية لعلاقتهما، حيث يصبح فيها الآخر جزءا منك، لا تنفصل عنه ولا تعيش إلا به وبذكره.

يوم السوق

تأخذ الحياة مجراها العادي واليومي خلال الأسبوع بأكمله. يرتب الناس شؤونهم ويتدبرون حاجياتهم، وكم من أمر يؤجل إلى يوم السوق، أو قل إنه أصبح مرتبطا بيوم السوق. فاقتصاد المدينة وعلاقاتها الاجتماعية لا تنحصر في دائرتها فقط، بل تمتد إلى القرى والجبال والمدن المجاورة كذلك. تمتد إلى عدد ليس بالهيّن من التجار، أصبح جزءا من القرية، لكنه متنقل أسبوعيا بين كم من قرية ومدينة. قد تجد مَن عنده منزلا أو دكانا مكترى. وتجد من هو متزوج من القرية، أو من له موقع في السوق الممتد خارج ساحته، عبر ممرات المسالك المؤدية إليه. فائض الحاجة تأتي به الأسر لبيعه يوم السوق من دجاج بلدي وبيض وعسل وزيت... ومع هذه الثورة في الأواني المعدنية والبلاستيكية، والجديد في التكنولوجيا والوسائل السمعية البصرية، تصبح هذه الأشياء والمواد مألوفة في النظر حتى تُستوعب في الوظيفة والحاجة إليها، فتتحول إلى ضرورة

ترتب لها قسطا من ميزانية تسيير الحياة المالية، فتضطر للشراء إما دفعة واحدة أو بالتقسيط. تكون كؤوس الشاي هي الجامع للصفقات والاتفاقات والاجتماعات. لا يخلو دكان ولا خيمة من صينية، تنشط معها المقاهي المختصة والمطاعم المقامة يوم السوق بشوائها الشهي ونغمات الموسيقى المختلطة في سمفونية مع دخان الشواء وأصداء المكالمات والحوارات التي تتفاعل بالآلاف بين أصوات المتسوقين.

يوم السوق، هو يوم حركة سريعة ومتعددة الاتجاهات. رياضة مشي وسرعة تواصل وتضارب بالأكتاف، ولا مبالاة. الناس تنتظر هذا اليوم الأسبوعي لإتمام مجموعة من المهام. يكون ذهنها موَجّها ببرمجة ووتيرة سريعة قد لا يكفيها وقت النهار لإتمامها إذا ما هي تباطأت في الإنجاز.

تنخرط يزّة ويطو في هذا اليوم، في منتصف الصباح وليس باكرا، الساعة الحادية عشر صباحا تقريبا. تخرجان للتسوق، متميزتين بلباسهما اللامع بالموزون والصقلي، بابتساماتهما وسلاح عيونهما الذي يسقط كم من ورقة توت عن موضعها. وكما تتمازحان بالدارجة المغربية، فتعلقان على من الْتَفت وهو بصحبة زوجته في الطريق، ومن كاد يسقط متعثرا من على درج أو حجر

أو من فقد قدرة على مواصلة حديث مع زبون في التجارة، تقول إحداهما للأخرى:

. عينيك أطاحوا وأسقطوا الزرزور من فوق السور.

وتعلق الأخرى:

. ما بالك إذا جاء وأتى به الهوى من شيشاوة.

. عندك الصحْ. تعلق يزّة. ذاك "الكازاوي" باع رأسماله، وجاء لتبذيره بأكمله مع (الشينوية)، وما رحِمته. يوم أصبح مفلسا، لاحته (طردته من منزلها).

. لو أنه اشترى حانوتا للبيع والشراء، لكان أفضل له. أدمن وداوم الكأس والنشاط ومشى مع الشينوية. لو لم يكن أهله هم الذين أتوا لإنقاذه، لأصبح أحمق في هذه البلاد السعيدة.

. ههه، الله يسعد أيامك آ لالة يطو.

يستغرق شراء الخضر وقتا ليس بالهين كذلك. فهي عملية فيها تواصل اجتماعي كذلك. حيث يلتقي جل السكان مع الباعة. يتبادلون الأخبار والسؤال عن الأحوال.

هما كذلك، تعرفان من يستميله الهوى والرغبة في المتعة. فبطول الحديث الملتف بالمواضيع يمكن أن يتم الاتفاق مع البعض. قد يكون ليلة هذا اليوم أو التي تأتي في المستقبل.

وبما أن يوم السوق يصادف يوم أحد، فقد تأخذ يزّة معها بعض الأحيان بنتها تودة، مفخرتها. ذلك أن المجتمع يتوافق في ثقافته على الإنجاب شرعاً، دون ذلك، فالهجّالة لا تُلام على اختيارها وقدر مصيرها. فالضرورة تبيح كل شيء، مما يخلق التعايش بين القيم والممارسات رغم تناقضها. وربما هي سياسة البسطاء كذلك. فهم لم يَأْمنوا في يوم من الأيام ذلك المستعمر، لكنهم تعايشوا معه. لم يَأمنوا القائد، بين جبروت وتسلط وطمع ودفع ظلم في آن، بين حرية وقمع، بين رغد عيش وضيق حال... هي الحياة بتناقضاتها لا تستلزم الانفعال والأخذ بالحد الأقصى دون غيره، محاولة التوازن والتعايش مع الحال دائما. قد يكون منطقا صامتا يتوافق عليه الجميع. فالضرورة تبيح المحظور شرعا أو عرْفا أو قانونا.

بعد الانتهاء من شراء الخضر والفواكه، تنتقلان إلى جناح الجزارة واللحوم. تتخاطف أنظار شباب المهنة هذين القادمتين. كلّ أسبوع تقريبا هو تجديد لطلعتهما وأمل شرائهما أو كسب ودّهما. بين ساكنة وجوار قرية تكون حضرتهما لها ما يميّزها، خصوصا عند البعض منهم. لكن الجزار (سي العرْبي) هو المفضل في التعامل. ورغم ذلك فآداب الكلام والترحاب والسلام، لا

يُفقدان للود قضية. يبقى الطمع إما في التعامل التجاري أو في الاستمالة لاتفاق على جلسة سمر وخمر، أو لمجرد تحقيق الذات في التواصل مع الأنثى. فالجنس الآخر مشكلة الآخر. وتلك طبيعة بشرية وكونية.

قد يكون الغداء في خيام السوق. فما زالت رحلة هذا اليوم مستمرة. ما زال صاحب الذهب الذي تتسابق الفتيات والنساء لاقتناء شيء من عنده ينتظر دوره في الزيارة. وتعتبر هذه العملية هي البنك الحقيقي للنساء وكذلك عند يطو ويَزّة، حيث كلّ ما يوفر من نقود خلال الأسبوع، تؤدين به قسطا من دمليج أو سلسلة أو خاتم... جلهن تتحدثن عن (ذْوايْر الزمان). فإلى جانب كونها للزينة، فهي قيمة مادية وعملة خالدة، مؤجلة الاستهلاك إلى علاج مرض مفاجئ أو تقاعد وعجز عن القدرة على العمل في سن مؤجلة للكبَر ما أمكن.

بائع الأواني يعلق على جاره الشاب بائع التمور:

. الخمسون درهما ديالك راها مشات (ذهبت) عند بائع الذهب.

قد يكون فعلا قد أعطاها يوما ما مقابل كسب ودٍّ أو جلسة متعة، لكن تعبيره وتعليقه، كما تعبير آخرين قد يبقى مجرد تعليق عام على ما وقع من سلوك ودفع في يوم من الأيام، سواء لهما أو لغيرهما. ويبقى ذلك طابع ثقافي يطغى على كل من يعشق جلسات النساء كسلوك من طرف الرجال. وقد لا

يكون صاحب التعليق هو المعني بالأمر، إنما تعبير الفحولة والتباهي بعض الأحيان أمام الآخرين من السامعين، رياضة يومية في الكلام يتورّط فيها كم من لسان.

يضحك الجميع. فكل التعليقات مقبولة بروح رياضية. يأخذ معها الخطاب طابعا مزدوجا متناقضا. يعيش الناس الواقع بمتطلباته المتناقضة، ويرجون العفو من كل بلية، وهُمْ منغمسون فيها. الكل يبحث عن الخلاص، عن المقدس الطاهر في حياته:

. الله يعفو علينا، الله يسامحنا.

هذه نهاية التعليق عند الجميع.

في هذا اليوم، اشترت يزّة دمليجا رقيقا لابنتها تودة. زادها فرحا:

. إن شاء الله يجلب لك الله ايسلان(عريس).

مع الابتسامة وحضور حشمة انحنت تودة بنظرتها. قبّلتها يطو مهنئة ومعلقة:

. إن شاء الله يا ربي. أنت جميلة تستحقين شابا جميلا وكريما. عيناك ذهبيتان وظلك يغار من إشراقتك وفرحك وبراءتك. الله يحفظك من أولاد الحرام.

. نذهب لجهة الأثواب الآن. تُذكر يزّة بمشوارٍ آخرَ يومَ هذا السوق.

الساعة حوالي الثالثة بعد الزوال، وشمس هذا اليوم لا تشفع لها إلا الخيام التي تساعد على الاختباء من لهيبها.

. غدا، عيد الاستقلال. من الواجب أن نذهب للاحتفال أمام القيادة. ولكن، يلزمني حزام موزون جديد وشربيل.

. إيوا الحمد لله على الاستقلال، تخلصنا من النصارى.

. ما بقي فرق الآن، أفعال الناس لا ثقة فيها. لا يسود سوى الغدر. ما يقوم به المسلمون أسوأ وأغدر.

نفس الأحكام ونفس التعليقات تجدها عندهما وعند غيرهما. واقع جديد أصبح يسود المجتمع. إنما لا حيلة في تحقيق كماله.

. ذاك المخزني صاحب البدلة، رأسه سخون. تعلق يزّة. جاء عندنا وجلس مجانا. تناول العشاء ونصف لتر من ماء الحياة الذي حمله معه. لم نقل شيئا. لكن كلامه كبير على لسانه وحاله. لا علاقة لنا نحن به: (لو كان بقي الاستعمار أحسن. ما كاين حْكام. هاذ المسؤولين كلهم خاصهم يتحاكموا).

. ولو أنه كثير الكلام إلا أنه خوافْ جدا. كؤوس الماحيا هي التي تخرج كلامه من فمه.

. أعلم ذلك، ولكن إذا كان هناك شخص آخر حاضرا في جلسته وسمعه سيقع في مشكل، لا نريد صداع الرأس. يبعد عنا وتركنا في حالنا أفضل.

. يمشي عند أولاده ويهنّينا ، ليس لنا طمع في نقوده.

. لو سمعه القائد، غدا يرميه لبلاد بعيدة. سيتم تنقيله قسرا وبالقوة.

. لا تنسيْ ، بعد غد أصحاب القائد عندهم سهرة (القصارة) جنب الواد في الباراج (السد). من رأى الجلسة في المنصة والرزانة والتقطيب يقول المعقول والخطر، ولكن بمجرد اشتعال ضوء الشموع تسقط السراويل ويبدأ سوق الصبيان الصغار.

تتبادلان ضحكات هامسة وكأن هذا الكلام يجب محوه بسرعة وتذويب سحابته العابرة، وتتابعان الهمس في توريط اللسان بكلام السياسة هذا يومَ السوق الجامع. لكنه كلام خاص في حوار خاص بينهما:

. الذي يسمع السد يقول موجود فعلا. هو مجرد سور قديم مبني.

. سمعتِ الأستاذ تلك الليلة ماذا قال؟ في الخريطة، هو موجود. ولكن أين هو؟ الله أعلم. تمويله التهمه الحوت.

. ربما هي النكتة ديال الميريكاني والمغربي. الأول عرض على المغربي لميريكان. قال له:

. تلك القنطرة التي تراها، النصف من ميزانيتها في جيبي.

لما أتى الميريكاني للمغرب، عرض عليه المغربي وقال له:

. تلك القنطرة التي أمامك...

قال له الميريكاني: أين هي ؟ لا أراها!

قال له المغربي:

. كلها في جيبي يا حبيبي.

. حتى أنتِ رأسك سخون. أصبحت مثل ذاك المخزني. عاداكِ بكلامه. العدوى راها خائبة.

وينقطع الكلام والضحك والتعليق حين الدخول إلى محل بائع الأثواب.

راحة تمالوت

البحث عن كرامة عيش

في الغالب، تجد المجتمع يفرض عليك أذاه. في الغالب، تجدك تتنفس صبرا تلو صبر. لا يمكنك أن تتنفس إلا بالصبر وإلا اختنقت. تخرج للجنان الظليلة. تجد تمالوت في كل شعاب الوديان، وعلى جنبات أشجار الدفلى وشوكيات عجيبة، أصوات الجنة المتجاوبة مع حواسك، زقزقات طيور وخرير مياه، حفيف أشجار وأصوات حية تؤنس صحبتك الطبيعية.

يمتلكك ذلك الشعور الغريب حينما تهم بالقيام وتفكر في الرجوع من صيام جماعة البشر والساكنة، حينما تقوم فتفكر أن تترجل عائدا، وتفكر في العودة إلى القرية، أو يحضرك ذلك الشعور وأنت الساكن في الحضر، بمجرد استعدادك للنزول من فوق سطح المنزل إلى دواخل المنازل والعمارات أو إلى شوارع المدينة. وأحيانا تكون منزويا في زاوية داخل المنزل أو داخل المسجد، فتحتاج لتتنفس هواء أكثر طبيعية وتجردا من اختلاطه بهواء وأنفاس الآخرين، كأنه تعبئة وشحن

طاقة للاستمرار في توازنات صبرك وحذرك، وتربص الآخرين بك، وتعلم أنك عائد لجحيم ضروري لك، في لدغك وبلسمتك. تكون تلك الجلسة المنعزلة استعادة طاقة وصبر جديدين ضرورين للذات بعيدا عن الأنام. جدلية ضرورية ومفروضة عليك.

الآخر، اختبار صبرك إذا. أو كما قال سارتر: الآخر هو الجحيم لك. كم ستتحمل؟ الله أعلم. زيارة أولياء الله الصالحين، من يحكم عليها؟ هل المثقف المتعلم، أم الفقيه الناطق بالتوحيد والأحكام، أم القلوب والنفسيات عند الزائرين؟ أم الله أعلم؟ هي دائرة جهل وعدم معرفة، متروكة للغيب ربما تتجلى بعد حين؟ الله أعلم.

يجلس الأستاذ محسن متأملا ما يكتب عن شخصيتي يطو ويزة. يدرك أنه محتقن بنفسيتيهما، سابح في تموجات احتمالات تفكيرهما وسلوكهما. لا اليقظة هي يقظته الخاصة، ولا النوم هو نومه الخاص. قد يكون غارقا في ظلمات سريره وليله فتخترقه أصوات وحركات عوالمهما. وقد يستيقظ ليلا ويجلس لخط أو رقن ما بدا متعلقا بهما. حينما يحكي لصديقه السيد أحمد البراني ما يقع، يعلق عليه هذا الأخير بجدية: انتبه لصحتك وسلامة عقلك. قد يسكنك جِنهما فتفقد صوابك.

يستغرب لمثل هذا الجواب. ربما ما كان ينتظره كجواب أراده منسجما مع تحديات السياسة والثقافة العصرية التي يتقاسمانها. لكنه يؤجل الخوض في هذه المفارقات لكي يتخلّص من مكتوب اضطراري حول الشخصيتين:

(حينما نجد المرأتين، يطو ويزّة، تشدان الرحال في فصل ربيع كل سنة، بقرابين وصدقات، تمتطيان حافلة، تغيّران من نظرات حيوية فتبدوان شاحبتين برؤية شَدة أو حزمة الرأس وانطفاء الابتسامة، وغض بصر في طريق القصد، وترك بلاد وتعمير أخرى، حتى تصلان إلى ولي صالح بمدينة أخرى.

ما القصد من اختيار البعيد؟ هل لكونه محايدا وبعيدا عن تفاعلات تجمع المجتمع المحيط والقريب، أم لكونه عدمَ منحازٍ لأسرة أو طبقة أو سلطة أو قضاء؟ خصوصا وأن كل أسرة في مجتمعنا تجعل لذاتها انتماء لولي صالح يحمي ويخيف من التجرؤ على الاعتداء عليها أو مساءلة قدرها. فهل هي تحت حماية قبة من قباب الأولياء الصالحين؟ أم هي متأثرة بتفاوت النيات ودرجاتها والقرابين والتنافس حول استحقاق الرضا والقبول بفضلها؟ أم هي محاولة عروج وتقرب إلى الغيب الأعلى؟ رغم أنه سفر أفقي بين منعرجات خلق الله الأرضي والتحتي داخل هذه الدنيا.

ما هي الطلبات المحمولة في الزيارة؟ هل هي لائحة مرتبة؟ ما نوعها؟ وهل هي دليل على عدم راحة؟ ماذا يريد كل واحد من الزيارة؟

حين النزول في المحطة الطرقية التي ستزوران فيها ضريح الولي الصالح، يعترضهما المستخدم لبيع التذاكر بإحدى وكالاتها. لباس عادي يمت للمدينة بثقافتها البسيطة، لكنها ثقافة تبهر القادم من القرى وأماكن العيش البدوي والجبلي. قميص مفتوح الأزرار العلوية، وفيستة زرقاء شاحبة اللون. حذاء أسود يحتاج كل يوم لتلميع ماسح الأحذية حتى يحافظ على تماسك جلده.

تكون نظرتهما وقد قامت بالمسح والكشف عن كل هذه الملاحظات أو بعضها. يتم السلام وتتم التحية. (المرساوي)، رجل في أواسط الثلاثينيات. غير متزوج. مدمن على السجائر وشرب الخمر. يكتري شقة سفلية ويعيش بمفرده، رفقته أصحاب البلية وأصحاب الحال. يعيش مع ثقافة المحطة، والتي لا يخبرها جيدا إلا روادها، فهي مجتمع مصغر له قيمه وتواصلاته، كما له مفاجآته وخصوصياته. فالمحطة باب السفر. مجرد رؤيتك لجداريات مدن واتجاهات الرحلات، كل مسافر له حمولة وحامل لزاد، فهي زاد بمفرده يحقق ثقافة خاصة داخل مجتمعاتنا. خصوصا وأننا عشنا في أجيال سابقة، ونعيش في حاضرنا لا وعي هذه الأجيال، ما عاشته هي من أعوام مجاعات، والتي ما زالت تسمياتها متنوعة بحسب المناطق: عام الجوع، عام الهيف، عام الهيفوف... والزاد كذلك سفر في صحراء، وقافلة قد ينقطع حبل مسارها فتحاصرها الكثبان الرملية أو عواصف رعدية فوق الجبال، وما تخبئه الطبيعة من أشكال حرمان.

لكن المرساوي لا يملأ ذهنه بهذه التحاليل إلا قليلا. فقد استطاع تحقيق التوافق بين ذاته ومتطلباتها وعيشه مع مهنته ومجتمع محطته ومدينة عمله. يعيش بعيدا عن أسرته، عن قريته التي ينحدر منها. مشهورة في تسميتها برقم الكيلومتر الذي تتوقف معه الحافلة.

. أين أسرتك يا مرساوي؟

يجيب:

. تقطن ب 44.

وكما أن كل حافلة لها عطب في عجلاتها أو تأخر في رحلاتها، فالإنسان كذلك له نواقصه، والفرس له كبوته، هذه هي الدنيا في فلسفة المرساوي. هيأته دالة على آثار تجارب أنهكته وسجائر احترق بها جذع قامته التي بدأت في الانحناء. كما احترقت بها أسنانه التي تآكلت وتهدمت في جلها. لكنه ما يزال ممتلكا لابتسامته الفريدة وصوته الجذاب في المحاورة وحكيه الساحر في السهر والسمر.

في هذا الصباح الذي انتصف إلى ضحاه، نزلت المرأتان اللتان خرجتا باكرا على الساعة السادسة صباحا من الحافلة، حيث ما زالت مدينتهما نائمة إلا من بعض ساكنة أو مسافرين مثلهما لوجهات متنوعة. وصلتا إلى محطة المدينة المقصودة. بادر المرساوي للخروج إذا من مكتبه. توجه للسلام عليهما

والترحاب بهما. قام بدعوتهما لتناول قهوة وفطور بالمحطة، وهو الذي سبق أن كان ضيفا عندهما قبل حوالي خمسة أشهر.

بعد تبادل الكلام الذي واكب تناول فطور الصباح، استجلى المرساوي فحوى السفر والزيارة للمدينة. ف(يزّة)، معتادة على هذه الزيارة المقدسة عندها، والتي لا يعلمها إلا القليل من أهل قريتها. وكأن كل فرد في المجتمع عنده مقدسه الخاص به الذي يؤطر مجال حمايته ويحقق أمنياته. وكأن قضاء الحوائج بالكتمان لا بد منه في مجتمع يسوده الحسد وشر العين الذي يذهب البركة ويهلك الصحة ويعرقل السلامة.

دعاهما في استضافة الى الإقامة عنده بمنزله. اعتذرتا معا. فهما متفقتان على تخصيص اليوم لهذه الزيارة المباركة والعودة إلى البلدة. مرة أخرى مقبلة إن شاء الله. فَتَحت يزّة قلبها في حديث أفرغت شجونها، وكأنها في هذا السفر في حاجة إلى التحرر من كل قيود الحياة التي تلتف حول ذات الإنسان وليس جسده، مثل طحالب بحرية، تخنق أنفاسه وحركته. فاليومي يراكم ضغطه بأمور إذا لم تصبر معها لا يمكنك العيش سوية داخل مجتمع وجماعة وعشيرة.

.كل يوم تشعر بتهديد من نوع ما. الصحة بعض الأحيان تخونك. المال هو الآخر تشعر بأنه ذهب منك. القفة تأتي بها ملآى بالخضر والفواكه واللحوم،

ولحظة كل شيء استهلك وانقضى، وأنت في حاجة إلى مزيد... والمخزن دائما معك بيد ماسكة وأخرى محذرة أو ضاربة. والبعض من الناس يتمنى لك بنظراته الموت والحرق وجهنم، يظن أنك سبب الشرور، وأنك مرتاح لما أنت فيه وسعيد به. بالعكس لم نكره يوما أن نكون مستقرات، فكل امرأة تحلم بزوج مثالي يوفر لها الأمان والعيش الكريم. لكن، حينما ترى واقع الأزواج تقول أف لهذه الحياة. حياتهم كلها مشاكل وخيانات من الطرفين معا. هذا يأتي خلسة في جلباب نساء، وهذه تستغل الذهاب إلى الحمام لكي تخون بطريقتها وتحقق رغبتها في الحرام... حياتهم كلها نفاق. ومرارة تجربتي هي من بين مراراتٍ أفظع وأقبح، لا داعي لتفجير مذلاتها.

ـ ماذا تقولين يا (يطو)؟ يعلق المرساوي ويتساءل مقحما لها في حوار صباحي بقلب مفتوح وسفر بوح، الكلامُ فيه مباح.

رغم أنه عادة ما لا يتكلم كثيرا في الصباح. يكفيه ضمد خلل التواصلات مع المسافرين، حتى إن البعض منهم لا يعلم أين يذهب وأي تذكرة يريد. فتحتاج إلى إخراجه من شلل تفكيره وشروده. وليتصور كل منا من يسأل عن البلدة التي يريد تذكرة السفر لها، وهي في نفس الوقت بلدة نقطة الانطلاق في هذا السفر. إضافة إلى طنطنة الرأس التي تثقله ببقايا سهرات الخمر والسجائر

والموسيقى والكلام الصاخب، لا تُخمد دخانها ولهيبها إلا كؤوس قهوة الصباح وسجائر جديدة مرافقة يكون صاحبها مدخنة مشتغلة.

ما زال سؤاله موجها لها. وكأنها ريح يوجهها عبر فجاج الجبال لكي تخترق عوالمها الداخلية بين ممراتها العميقة وأوديتها السحيقة. لا تدري إن كانت هذه الأودية تحمل في مجراها مياها سلسبيلة أو انجرافات هادرة. لا يدري أحدهما سبب اختراق الأشكال التضاريسية لعالم ذهنه وطريقة بحثه عن الجواب. في بعض الأحيان تجد نفسها مسافرة فعلا بيم منعرجات ومرتفعات جبلية ومسالك غابوية وهي تبحث عن الفكرة او الكلمة. هو كذلك، يكون كالطائر الذي ينخطف جنوبا جهة مسقط رأسه حينما يريد أن يتسلّح بفكرة أو قيمة قديمة. ربما تكون يزة في وضعهما. لا أحد يعلم ذلك.
احتاجت (يطو) لتصويب جلستها، ويدُها اليمنى قد وضعتها فوق الطاولة، ماسكة بإبهامها وسبابتها والوسطى كأس الشاي الذي انتصف وبرد مع نسيم هذا الصباح الربيعي.

.كلام يزّة صحيح. تهديد الزمان، وآلام الإهانة في المجتمع لا ترضى بها. كل واحد منا يحمل القناطر من الهموم، وكأنه يعيش أو عاش مئات السنين. وكأننا يجب أن نحمل هموم الأجيال التي سبقتنا. هي عبءٌ واجبٌ حملُه في نفس

الوقت. إذا نبشت الماضي فأنت كمن يغرق في أم الربيع الذي يمر بجانب المدينة. لذلك من الأفضل للواحدة منا أن تأتي لزيارة أحد أولياء الله الصالحين، هي في حاجة إلى سكينتهم. تحس بصمتهم وبالراحة التي ينعمون بها والتي تحيط بهم في قبورهم. حينما تدخل إلى الضريح تجد الميت مستريحا والزوار له كلهم في حال غير مريحة ويبحثون عن الراحة... هذه الدنيا تعاكسنا نحن البشر... بعض الأحيان لما أرى ما مضى من حياتي وما ينتظرني، أرغب في زوال هذه الحياة. إنما أخاف من مصائبها وفضائحها. أنا لا أملك في هذه الحياة إلا صحبة يزّة. رغم كبر هذه الجبال وشموخها فهي لم تُوفر لي أمان العائلة والقبيلة. أظن أن الكل مات، حتى الأحياء الباقين هم في عداد الموتى، لا صلة لي بهم ولا أعرف أين هم... لمَ يا ربي كل هذا العذاب؟ اللهم اعطنا راحة أوليائك الصالحين.

استأنس المرساوي بكلام هذا الصباح. كان جل الوقت مستمعا، وهُما في وضع محلل لفلسفة زمانهما الذي تعيشانه كواقع. تبحثان عن طهارة روحية في مجاورة المقدس.

. طيب، حان وقت بيع التذاكر للحافلة المتجهة لمراكش. ستدخل بعد قليل آتية من فاس. المهم، إذا شئتما المقام، مرحبا بكما. لقد وعدتني (يطو لحسن)

بزيارتي في بيتي حين مجيئي عندكما آخر مرة. الآن صباحكم مبروك. ومبروك الزيارة.

. شكرا آسي المرساوي .الله يخلف عليك. تعلق يزّة. خصوصا بعد أن ناولهما خمسين درهما لركوب سيارة الأجرة الصغيرة.

. إنما حين عودتكما من هنا إلى البلدة، مُراَ بمكتبي قبل الذهاب.

. وهو كذلك. بارك الله فيك.

. بارك الله فيك، الله يعاونك.

في الطريق إلى الضريح، كان موضوعهما هو المرساوي الذي وضع عينه على يطو للاستضافة. أتراه يحبها أم هي مجرد نزوة عابرة. والحب عملة محرمة في التلاعب بها في مهنتهما. لا مصيدة للمشاعر لأنها تهلك صاحبها.

. صباح مبروك هذا. تعلق يزّة.

. نعم، ما زال الناس فيهم الطيبون. تضيف يطو لحسن. الله يجعل الولي يوقف معنا في الحلال. أما الحرام تعبنا منه.

...

سكن سفلي مظلم. لا يمتلك من التهوية إلا نافذة واحدة تخترقها أشعة الشمس لأقل من ساعتين خلال فصل الصيف. أما في الفصول الأخرى، فنادرا ما نجد لخيوط الشمس حضورا أو تشريفا بزقاق هذا السكن الذي لا يعبره مارٌّ، ما دام مغلقا بجدارٍ لمنزل من زقاق آخر.

رائحة مركبة من بقايا منفضة سجائر ودخان ملتصق بالزوايا كما بالفراش والستائر، وكؤوس شبه فارغة إلا من رائحة خمر، كانت نهر سقاء عطش وطقس سهر ليلة تشبه مثيلاتها في ثلاثياتها المقدسة: خمر وتدخين وجنس. حتى إن رائحة الجنس الذي أقيم طقسه على الأريكة وليس على الفراش يخترق خارجا من هذه المسام، فيجد ما يمتزج به من دخان وأشياء أخرى. هو الذهن والتنفس اعتادا على التعايش مع هذا العالم الكيميائي الزاحف على فيزياء ساكنيه. هكذا يغيب أي تفكير في مآل هذه الحياة، حيث لا حياة خارجها.

بين المحطة الطرقية والسكن، احتمالات رهان سباق الخيل تنتهي دائما بأرقام محتملة للفوز مبتلعة لكل النقود التي قد يوفرها اليومي، أو التي قد تحصل عليها (يطو) مما تبقى لها من رصيد ضمان مادي، مما قد تبيعه من ذهب في ملكها، ما دامت هي الأخرى قد انخرطت من منطلق تضحية ومودة مع أحلام المرساوي ورهاناته، فربحه من ربحها وخسارته من خسارتها. هي العشرة والخلطة إذا، والتضحية لمن اختارت النفس العيش معه. هو رهان الحياة الاجتماعية مثل رهان الخيل وسباقها.

اكتشفا معا ذلك الحنين إلى ديار هجروها وإلى حضن أهل تركوه. كأنه مغناطيس أكره الذات فجمعها مع الأخرى. في بعض اللحظات يتملّكهما هذا الشعور، خصوصا حينما يشتدّ التوتر ويغيب طعم الحياة وسبب التقائهما. قد لا يعبّر أحدهما للآخر عن ذلك، لكنه قد يفرّغ سخطه في مخاطبة ذاته أو عنف لفظ منفلت مع اللسان.

لسان حال المرساوي يورّطه في استحضار خيباته في كل حوار صريح يفتح فيه قلبه وعلبة أسراره وعُقَده. قد تكون فرصة هذا التفجير في جلسة سائق حافلة متوجهة إلى الجنوب ومارّة بجانب قريته الأم وديارِه وأهله الذين فقدوا المرساوي الطفل والشاب الصغير الذي نشأ بين أحضانهم. كيف خالف عُرْف شباب القرية وذلك العهد التربوي والتقليدي الذي يجعلهم مؤهّلين لمسار التجارة

ومسالك العمل فيها مع من سبقوهم فيها. ثقة قَبَلِية واجتماعية وأسرية تجعل الأفراد محترِمين للتضحيات اللازمة والتربية النمطية الصارمة التي يجب أن يخضع لها الجل، خصوصا أولئك الذين لم يستمروا في الدراسة فلم يحصلوا على شهادات مناسبة.

كان المرساوي ممن استمر حتى التعليم الثانوي. لكنه كان ممن لم يحصلوا على شهادة باكلوريا على الأقل. استطاب نعيم المرحلة وحلم الشباب. انفتح بصره على المدينة أكادير، وعلى رغد الاستهلاك واقتناص الشهوات. وتعوّدت النفس على الاستهلاك في شرب خمر وسجائر ومتعة جسد قدْر التحقيق الممكن. لكنه استهلاك ونمط عيش يخالف الإمكانيات وثقافة العيش عند أفراد الأسرة والعشيرة. لن يكون صالحا لتجارة مع الآخرين، وسنّه لا يسمح له بمسلكها كصاحب سخرة وحامل أمتعة أو عبدٍ عند سيّدٍ ما، كما كان يعبّر عن ذلك رافضا لهذا العرْف وهذا القانون وهذه التربية التجارية.

أما يطو لحسن فسِتار شريط حياتها المكشوف لا تريد له أن يعرّي عن مرحلة اعتبرتها من الماضي السحيق، ماضي امرأة كانت هي يطو لحسن، هي عيطونة، هي تلك الطفلة الملاعبة لظلال تمالوت وعيني الذئب المختبئ داخل أجمة الغابة واحتفاليات أعراسها بجذوع الأشجار. حتى مرحلة عيشها مع يزّة، بقدر كسبها فيها لأخت بقدر تمزّق دواخلها حيث لا ثقة في هناء مستمر

ومضمون. كأنها مرحلة لم تكن. وكأن ذلك الخوف اللعين الذي رافقها في أعزّ لحظات المتعة والنشوة مكدّرا عليها كل سعادة ممكنة، استطاع أن ينتصر في معركته الساخرة على فؤاد يطو لحسن. كأنها استسلمت وتركت له أن يفتك بما تبقّى من كيانها. ولعلّ شرعية تدميره امتلك وتسلّم مشعلها هذا المرساوي الذي يتميّز بدفء صوته وسحق أسلوبه في الحياة لكليهما معا. سكة نار تحرق من ركب حافلته واختار السفر معه فوقها وداخلها.

تجلس في يومِيّها، تمر صورٌ في ذاكرتها كأنها أمام مرآة بيضاء جليدية خالية من ألوان وفيح أزهار عواطف أو مشاعر. أصبح الهاجس الأساسي هو توفير قرابين الطقس الثلاثي. ما جادت به الخيل من رهانها فتصدقت به على العشيقين في احتفاليتهما التي أصبحت أكثر برودا.

اليدان ترتعشان وترتعدان أمام كل لمسة لمحفظة النقود، استشعارا بأن الإفلاس مناخها، والحرمان من الإدمان كابوسها.

زاد الجحيم المهدد حضورا يوم بيع التلفاز، الأنيس الوحيد الذي يشفع لهذا الوجود السفلي المظلم. غارت في النفس آمال، فلم يعد لابتساماتها حضور كعيون الماء التي بدلت مجراها فلم يعد لها مصب ولا خرير، حتى جفت بحيراتها وتشققت يابستها يبابا، حتى أصبحت كرائحة حمّام فارغ بارد هجره محبّو الطهارة، فما بقيت فيه سوى رائحة أطلاله المنبوذة.

لم يعد باستطاعة المرساوي البقاء في مكتب الوكالة طول اليوم للعمل، فالديون جعلت أصحابها كالثعابين المطلة عليه من باب المحطة الطرقية. كلٌّ يلفعه بتوبيخ أو سب أو إهانة أو تهديد... تهتز مع كل هذا شرايينه من كثرة الضغط حتى تصبح غير مطيقة ثقل هذا الجسد وهمومه وأوهامه وقضاياه. ألهذا تمكن مرض السكري من التربع على انهياراته؟ ألهذا أصبح ينتقم من عدو داخلي في إدمانه وشربه؟

هجره من كانوا أصدقاءه، إلا هذا الجسد الحاضر الذي يحن بلمسات وصوت مشفق مرة مرة، وابتسامة لحظة كأنها مصل مهمته الحفاظ هذه على الحياة الذاهبة.

. اذهبي لشراء بعض الخضر من السويقة. سأخرج إلى المحطة بعد قليل.

عادت بعد ساعة. وكانت الساعة كافية لكي يضع المرساوي حبلا معلقا، لكي يقف فوق كرسي، لكي تختنق الأنفاس وتنتفخ الأوداج، وتجحظ العينان لدرجة ابيضاضهما واستسلام حركات الأطراف في تلاشٍ أسدل الستار عن مشهد حياة كانت ممكنة.

ولولة وصراخ، بالأمازيغية والعربية. وقوف بعض الجيران على مشهد الأحزان الذي ذهبت ضحيته يطو لحسن قبل الميت المنتحر. لم يأتِ توقيت بعد الزوال

حتى كانت سيارة الإسعاف ذاهبة بالكائن الميت متحولة لسيارة نقل الأموات، بينما كانت سيارة الشرطة ذاهبة بالكائن الحي الذي احترقت جذوره وبقي جذعه يابسا منتظرا آلات الحطب والقطع لأجزائه. كان آخر أفراد الشرطة خروجا من هذا السكن السفلي هو مَنْ جر الباب مُغلقا لها ومغلقا لسيرة حياة جمعت ثنائيا عذبت الغربة قلبيهما قبل جسديهما.

لا ثلاثية مقدسة بعد اليوم. جف الدمع في سيارة الشرطة. عمّ الهدوء مرافقا لصوت عجلاتها.

. هل من قريب لك بالمدينة؟

. يزّة. تسكن بالمدينة المجاورة. هذا هاتفها المنزلي.

كان آخر أيام كلامها. وما تلاه كان رحلة صمت اختارتها نفسيتها رفضا للوجود والواقع، سوى أصوات طفولتها ولغة طفولتها ولعبها وغنائها في جبال وشعاب تمالوت.

تمالوت! لا أمل في جنة سوى تمالوت. ليتها تعود تمالوت. لكن، هناك القائد والشيخ. لكنّ أخويها ماتا في برد جبالها القارس... لكن أمها تحت التراب هناك. كيف تعود تمالوت؟ بالخوف أم بالبرد أم بالقبر؟ رغم ذلك، فتمالوت آخر أرضية متبقية لها ترغب فيها.

مرت السنون في ألوان سجون ومستشفيات. انهار الجسد المستقيم القوام، المتصلب الأعضاء. تلاشى الصدر القادر على التنفس في حرب كيماوية لقوى الاحتفاليات في الطقوس المقدسة للّيالي الخوالي.

انهار التوازن الداخلي، وهو الذي أعاد انفجار بركان الدموع من جديد، تلك التي جفت مقاومة لجفاف وقحط هذه الحياة. زاوية من غرفة السجن تستغرق جل النهار، وحتى ساعات من جوف الليل، حيث يرافق البكاء الأساطير المرافقة للحظة النوم. لا أساطير سوى الفقدان تلو الفقدان، وهذه ملحمة أسطورية في حياة يطو، كانت كافية لاختلالها ورغبتها في الانتحار، وهذيانها في الكلام:

. هو ارتاح وذهب، حتى أنا سأذهب، سأذهب للآخرة، لجحيم نومي الأخير. (دُو غَار الآخرة). كما رددتها بالأمازيغية.

اضطر الأمر إدارة السجن لنقلها إلى مستشفى عقلي بمدينة أخرى. بين سنوات السجن وسنوات المستشفى الخاص بالأمراض العقلية، قرر القدر المجتمعي والقضائي والحياتي أن يهب يطو خروجا من أسوار الحبس دون أن تخرج من قيود وسجن النفس المغلغلة في أعماق الوجدان، المكبّلة لكل حركة وكلمة وتشغيل حواس.

لكن إلى أين هذا الخروج؟ لا كلمة مقدسة على اللسان سوى كلمة تمالوت.
ربما محج شفائها، رجوعها إلى رحمها.

لم يكن ل(يطو) من يرافقها في صمتها ويحضر على تحولاتها سوى امرأة رأت فيها مرآتها ومسارها. ترى لو كان الحال حالها؟ ما مآلها؟ سواء في مرحلة المحاكمة أو في السجن أو في المستشفى. كلها محطات متشابهة. كلها اختيار واحد أرادته يطو لكي تريح نفسيتها وتريح العالم من يطو.

هي تمالوت، دائما على لسانها.

انهار ذلك الجبل الشامخ الذي كان يبني إنشادها وغناءها، الذي كان يفجر مُلَح الكلام ويضيء الليالي ويدفئ شتاء الجلسات الثلجي... كانت في حاجة إلى ثقة، إلى شخص تضع فيه وعنده أمنها وأمانها، ترتاح من تحمّل مخابئ القدر التي تعم محيطها فقرا ومَسًّا وخرفا ومرضا... في الحاجة إلى رجل ذكر، يشترك معها في يوميها، تعيش لأجله في استيقاظها وقبل نومها. تستحضر كيف استدرجها القدر لمآلها الجديد. كان مجرد اقتراح وتحوّل قرحة مريرة:

. إذا شئت، اجلسي معي بمنزلي هذا نعيش فيه معا.

. وماذا عن حياتي مع يزّة؟

. هي صديقتك ولها بنتها وأسرتها. ستتفهم حاجتك لحياتك الخاصة، لِمَنْ يُعِزّك ويرغب في العيش معك.

. أحتاج إلى التفكير. أمهلني أسبوعين وسأتصل بك أو آتي إليك مباشرة.

هي التي تعلم كم خلق التفكير من مسافات بينها وبين العالم المحيط بها. ففي كل لحظات الكلام والضحك والحركة، أخذت أوقات التفكير تزداد وترسم فضاء جديدا وبديلا عن العزلة الداخلية. تقابل التفكير في العيش المشترك مع الشعور بالعزلة الداخلية. كانت طمأنة يزّة لاختيارها واحتياطها في نفس الآن.

. اجعلي حسابا لدوائر الزمان. لا تنسي أن ضمان ما تبقى من العمر هو ذهب تخزنين فيه ما تحتاجه المرأة في شيخوختها، يوم تبقى منسية الوجود مشردة المجتمع. من ينفق عليها؟ من يعالج مرضها؟ من يسكن آلامها؟

تعود بها الذاكرة كل حين إلى الوراء، إلى مثل هذه الحوارات وهذه القرارات التي تحسم قدر الحياة الآتي. قد تكون هذه الذاكرة نارا جديدة تحرق هشيم ورقة الحياة المتيبسة حيث لا وصف ب"ورقة توت من ورق الجنة" يليق بها.

لكن، حتى هذا الذهب لم يبق له وجود. باعته يطو تدريجيا لتحقيق الثلاثية المقدسة (خمر وأكل وجنس). لو لم تكن تلك السلسلة الذهبية التي تركتها وديعة عند يزّة لما وجدت ما تعود به إلى تمالوت، يوم صادفها الخروج من المستشفى، حيث لم تدرِ لِمَ دخلته سجنا ومستشفى، ولِمَ خرجت منهما؟

يوم وضعت قدميها على أرض تمالوت، رفعت بصرها إلى القمم المقابلة. الغابات الممتدة هنا وهناك. أطياف أرواح تتراقص في الهواء بين هذا الجبل وذاك. بل هي عابرة بين مسالك المنحدرات والأشجار. لا تدري ما الذي افتقدته هنا، الغابة أم الأرواح، أم هي روحها المفقودة. حنينها إلى خوف طفولي من (أوشن) أرحم وأعذب من الخوف الذي تفجر في عز حياتها. حنينها إلى أمل رجوع أخويها قويين بعد أن ذهب "فرنسيس" ومات الشيخ وانقطع خبر "القايد القديم"، وقبر أمٍّ طمره التراب، ربما تسقيه من ماء الساقية الجارية عبر الزمن وعبر هذا العمر الذي عاشته والذي تبقى لها.

هَا هما قدماها، جذور شجرة عادت لتربتها بعد أن اجتثت منها قهرا وقسرا. ودّت لو أن أظافر رجليها مخالب تنغرس مع التراب وتشق أعماقه لتلتحم بما يعيد لجسدها ودمائها وحواسها وفروعها حياة وحيوية اخضرارا وخصوبة جديدة. ماء عميق يسقي فؤادها اختزنته ذاكرة هذا المكان فأصبح شبحا قائما لا يطيع الإنسان.

ما زال البيت قائما، رغم انهدام نصفه الخلفي. كومة أحجار وشجرة كرم فوضاوية نبتت في المكان مدة غياب أصحابه، ربما نيابة عنهم في الحفاظ على الحياة وظلالها به، وربما تنكر وعدم استشارةِ غائبٍ وإقصائه من مكانه.

قسمات الزمن القاسي رسمت تجاعيدها على جلد يطو. هويتها التي يتذكرها بها جيلها وأهل قريتها: عيناها العسليتان وأنفها الصامد في المواجهة وقامتها التي استعادتها مخبئة لفراغات دمار هذا الزمن الذي نخر دواخلها وجهدها.

هي (يزّة)، دائما. نبيّتها ومنقذتها ومرافقتها في هذه التحولات الملحمية بين الوجود واللاوجود عبر حبل زمنها الحادّ. قَضَتْ معها الليلة الأولى بتمالوت، ثم ودّعتها بعد أن تواصلت مع بعض أفراد القرية وصية ب (يطو) ابنة البلدة والتي يتذكرها أهلها ويلقبونها فيها ب يطولحسن:

. آه، يطولحسن... نعم. عادت. الحمد لله على سلامتها.

في خطابهم (على سلامتها)، يجعلونها كمن كانت في سفر، والمسافر دائما يعود. لا زالت رحمة المكان مأمولة، عساها تكون جزاء للثقة التي جعلتها في الحياة التي غدرتها فيها أيامُها.

في ثاني يوم لها من عودتها إلى جنتها، اختارت طريق الغابة، اخترقت أشجارها، بحثت عن أطياف وأصوات منسية، أوّلت ما شاءت من حركات وظلال

وانفلات أشعة الأنوار الشمسية الحاضرة في احتفالية العودة وتراقص فروع أشجار الصنوبر الغابوية. حاولت أن تعانق كل جذع من كل شجرة. معانقة قد تطول هنا أو تقصر هناك. قد يصاحب العناق صوت أجش أو غناء أو بكاء أو صراخ أو ضحكات هستريية. قد تطفو تلك الأسماء التي زاوجتها واحتفلت بها مع كل مناسبة. كانت الألوان تتوزع في مقلتيها نيابة عن تشكيل لعبتها الطفولية. ستكتفي بهذه الصور التي تطفو من الذاكرة في إعادة مشاهد السعادة، مشاهد حياة كانت لها هنا ب: تمالوت.

كلما توغلت في فضاء مغطى بظلال أشجار باسقة، كلما شعرت باقترابها من روح المكان والزمان اللذين تبحث عنهما. أتاها صوت أخيها لحسن من مسرب ماء وأشجار وريح هَابَّةٍ في جوفه. أتاها صوت طائرٍ هذا فصله في تواجده بالغابة والمكان، كأنه رفيقها في العودة. أتاها صوت يئن لحيوان يدب متساكنا، هزَّ فيها خفقانا كانت في حاجة إليه. جعل الدم يسري من جديد فتسمع له مسارا بين عروقها، وحرارة على خدودها. أمسكت بحجرة في يدها وشدت عليها بقوة أناملها، توحدت فيها أعضاء وأعصاب جسمها. هو خوف جديد، لكنه خوف مادي وحقيقي، آت من خارج هذه الذات اللعينة وكاشف لوجهه بخلاف هذا القدر الغادر والساخر من البشر. وتأتي المواجهة وكأنها خروج من ظلال تمالوت إلى شمس جديدة توجد بها وبجوارها.

تهيأت واستعدت للمواجهة والصد والمقاومة. كلب أم ذئب؟ ازداد الخفقان. أترى ما يزال الذئب يريد التهامها؟ يتحين الفرصة معها منذ صغرها. ينتظر عودتها لكي يتابع افتراس الزمن والخلق لها؟ لن تقبل هذا التهديد من جديد لا بد من المواجهة. التسلح بما تملك. علمتها قساوة العيش أن ثمن التحرر من الخوف هو المواجهة التي لم تقم بها من قبل. كان تسامحها سلاحها في رحلتها خارج زمن تمالوت. ها هي وقد عادت، أهذا ثمن رجوعها واشتياقها؟

دقت طبول الحرب والتهييء لها. كان قلبها عازفا على أوتار معركة جديدة. ماذا لوكان (أوشن) ذئب الطفولة الذي يتوعدها في صغرها؟ هل جاء وقت تصفية الحساب معها؟ همَّتْ كذلك لأخذ عصا منفلتة من فرع شجرة يابس. زاد أنين الحيوان وجأره... سكن وانبطح على عنقه كما على أربعيته وذيله غير بعيد عنها.

بقيت هي أمام المشهد الجديد جاحظة العينين، مقطبة الحاجبين، حائرة بين استعداد هجوم أو استقبال مألوف.

لماذا لا يكون مبعوثا من طرف أخويها؟ أمانة لها؟ جلست على ربوة ترابية منحدرة جبليا بجانب ساق شجرة. بقي المشهد لدقائق، بل زاد لحوالي الساعة. خلق علامات استفهام، ولمحات بصر خاطفة، وتصويب نظر يستقرىء المرغوب والمرهوب. إشارة حنان واستضافة كانت كافية لاقتراب الحيوان أكثر

من الإنسان. حركات ذيل معبرة عن قراءة أمن وأمان ورغبة في صحبةٍ في هذا المكان.

هي كلبة أنثى بادية معالمها. اقتربت ونالت عطفَ مسحٍ بكف يطو. ما زاد من إقبالها وغيّر أنينها وعبّر عن فرحة في عينيها. أيكون الحيوان أفضل حالا من الإنسان في تحقيقه لآمال صحبة وحياة؟ أهناك رائحة ما جذبته لهذه العائدة لجنتها وغابتها؟ من يحتاج للآخر؟ ألم تكن هي في حاجة إلى رجل؟ ألم توقف زمنها الأطلسي الجبلي لتلتحم بزمن ابن الهضاب وسكان السهول المنبسطة والمنخفضة؟ ألم تعش مع ابن القبيلة العربية النطق والإنشاد والغناء؟ راح الزمن وأخذ معه تجربته.

عادت إلى القرية. تبعتها الكلبة بقياس مسافة فاصلة. دخلت يطو إلى بيتها الحجري، نصف المتهدم. تلقت طعاما وسقاء من جود وكرم أهل القرية، فما عُدِمت الرحمة جوارا. وكعادتها في الصباح، في فتح مبسم الباب الذي أصبح له صرير، مُطلة على الغابة المواجهة، سلوك وعادة طفولتها، استنشقت هواء جديدا عبَر غرفتها. لمح بصرها أذنين استقامتا عموديا مع وقفة الكلبة على ساقيها الأماميتين ولسانها المتكلم بالحركة المستمرة في اللهاث، وذيلها الراقص للتحية والتواصل. لدقيقتين، استمر هذا المشهد الثاني من التعارف بينهما. قررت معه يطو وهْب ما بقي من الطعام للكلبة التي اقتربت للأكل. وببديهة

طفولة وصِغَرٍ، نادتها بتسمية خاصة: (مْدَّه). ها قد عاد تأثيت الجنة من جديد. لكن، كيف هو قلب يطو فيه بالتحديد؟

في ليلتها الثالثة، عادت مشاهد صامتة ينقصها الكلام. حركات شفاه نعم، لكن أين الأصوات؟ أين هم أصحابها؟ كيف يمكن استردادهم في هذه الحياة؟ حضرت أمكنة حنونة: شلال تمالوت، بركة الاستحمام تحته، الكهف المعلق، شرفة منظره العام في الإطلالة على مجال غابات ومجاري تمالوت والوادي...

في الصباح الرابع، باكرا، بمجرد فتحها للباب وجدت الكلبة (مده) من جديد مع تحيتها الحركية، مقتربة في انحناءة وصوتِ حنينٍ. لا كلام. فقط إشارة صباحية ووجهة إلى الغابة من جديد. ما أثار استغراب (مده)، فجعلها تفرد إحدى أذنيها قبل أن يقف زغب ظهرها وتتعالى أطرافها في متابعتها ببصرها لوجهة يطو الصباحية، فتسرع في الالتحاق بها. أكيد رحلة طبيعة ورفقة مطلوبة بالفطرة.

في خط متتابع حتى سفح طريق الغار الصاعدة، توقفت مده بأذنيها المنتصبتين وبعينين متعجبتين من هذا الاختيار لهذا المكان، وبداية تسلق بوابة الغار.

روائح منسية في ثناياه المظلمة. بقايا رمادية لتدفئة حطبية، لا شيء تغير بداخله سوى ما كان من علامات تعرية على جوانبه الخارجية.

جلست يطولحسن بالوصيد متأملة مشهد الماضي وبقاياه في الطبيعة الممتدة أمام عينيها، و(مْدّه) بجانبها مكتشفة فضاء يطو الجديد وما تريده منه بالتحديد. مرت جماعة سياح راجلين ومعهم دليل السياحة الجبلية. تحية بإشارات اليد من الجماعة، وجدت معها يطو الحركة لرد التحية والابتسامة التي حركت ابتسامات داخلية.

بعد لحظات، اقتربت رؤوس معز وأغنام من سفح الغار، ما اضطر (مده) إلى انتفاضة في جسمها وحركة استنفار مما سيأتي مع هذا القطيع. فجأة بدأ نباح كلبين رفيقين للقطيع، تواصل معه نباح (مده). تنازعٌ متكافئ بين بني جنس حيواني واحد.

أخذت يطو بعض حجيرات لتهيّب بها على المزعجين، في حين بقي القطيع مستمرا بحذر في قضم ما يجده بين تضاريس هذا المرعى الجبلي. ويتدخل صوت الراعي لإسكات الكلبين، قبل أن يظهر في المشهد السفلي لرؤية (يطو) و(مده).

. السلام عليكم.

. وعليكم السلام. بصوت خافت غير مسموع تقريبا، مع إشارة يد من يطو.

. من أنتِ؟

. ومن أنتَ؟

. أنا لحسن العياشي من تمالوت.

. ألست أخ موحا العياشي؟

. هل تعرفينه؟

. نعم، أنا يطولحسن من تمالوت كذلك. أين موحا؟

. موحا مات رحمه الله منذ مدة طويلة. سقطت عليه صخرة ضخمة منجرفة من جبل الواد(تداوت).

. الله يرحمه.

. هل تودين شرب بعض اللبن؟

نزلت متأنية من أعلى إلى سفح الوادي حيث سلمت على لحسن بتقبيل يدين متبادل بينهما، عربون تواضع أخلاقي في التواصل بين سكان المنطقة.

قامة طويلة، وعضلات صلبة رغم نحافة الجسم، يحمل معها لحسن العياشي وشما على طول ذراعه، وعلامة حادثٍ غرَس خطّه على جبهته.

ـ أنا الأخ الأصغر ل (موحى)، نشأت وترعرعت عند عمي بميدلت ولم آت إلى تمالوت سوى بضع سنين خلت قبل الآن.

ـ أنا أخت حدو ولحسن أخَتَار. إذا كنت تسمع بهما.

ـ نعم، حكوا لي عن عائلة أخَتار، لم أكن أعلم أنهم هنا. الكل يقول إنه لم يعد أحد منهم. الأخوان بقيا في الجبل والأخت عند عائلة أمها.

انحبست أنفاس يطو لهذا التغييب القسري والقدري لإخوة ولأسرة، سلخت من وجدانها وحياتها النفسية بتمالوت، ودُحرج القلب مُتْرَباً ليعاينَ جراح التشرد عن مجتمعه.

تدارك لحسن العياشي أثر الكلام البادي على تنفس وعيني يطولحسن.

ـ الكل يترحم على حدو ولحسن أختار. الكل يحيي شجاعتهما رحمهما الله.

ـ وأنت، كيف كانت حياتك بميدلت؟ حتى عدت إلى تمالوت؟

ـ في سن مبكرة دخلت العسكر. قضيت اثني عشر سنة. في لحظة غضب لكَمتُ رئيسي. اعتُقلت، طردت من العسكر ولم أحصل على شيء. لم أجد

الأمان في مكان ما إلا بعودتي لتمالوت. أنا الآن متجاوز للخمسين من عمري ومرتاح مع رعي الغنم والمعز، خصوصا وأن موحى الله يرحمه، أوصاني برعاية قطيعه.

. الله يرحمه، كنتُ عزيزة عليه. حتى أنا عدت إلى تمالوت تاركة عالم المشاكل في المدن.

. ولِمَ صعدت إلى المغارة؟ أنا آوي إليها بعض المرات. لا أحب كثيرا البقاء ليلا بالقرية، فأجهز المقام بالمغارة.

. لقد وجدت بقايا نار هناك. كنت آتي إليها في صغري مع أخويّ. وكان أخوك رحمه الله يجود علينا بكرمه.

. كُلي معي بعض الخبز والزيتون، عندي في الجراب.

بدأ لحسن العياشي في تحضير تدخينه لمادة الكيف بإعداد "السبسي" و ملء "الشقف" بالمادة الخضراء. نسيم دخانه اخترق خياشيمها المنسية. أغمضت معها يطو عينيها لثوان. استحضرت ذاكرةُ الشم فيها لحظات الصخب والدخان والخمر والرقص ووو... أين هو ذاك الجسد الذي كان يفيض حياة وشهوة؟ ليالي يزّة الصاخبة بالنشاط والطرب والرقص؟

هو إكسير جديد تنمّلت معه المسام. وهو سحر جديد زوبع الدواخل الرابضة والرافضة للتغيير. سالت دمعتان متوقفتان على خدي يطو. اعتذر موحى العياشي على الإزعاج الذي سبّبه لها بدخان الكيف.

. بالعكس، تعجبني رائحته. إذا لم يكن هناك مشكل أريد تدخينه معك.

انفتح الكلام، وأشرع أبوابا للذكريات ورحلة العمر وخريفه الحاضر والآتي. اكتشفت معه أنها هي كذلك تجاوزت الخمسينيات من عمرها. لكن حكامة الكيف جعلت التوازن قائما في استحضار كل هذه المهملات الماضية والأليمة.

. أول ما فكرت فيه حين رجوعي لتمالوت، هو المجيء لهذه المغارة. ربما أخبئ فيها طفولتي وروح أخويّ لحسن وحدّو. أجد الطبيعة وهذه الجبال أكثر أمانا مما تخبئه المعيشة بين الناس في المدن والمناطق الأخرى.

الغريب أنه لا نساء القرية ولا شيوخها قد أزعجوا (يطو) في اختيارها لهذه الحياة في هذه الخلوة. يعلمون ما ينقصها. يعلمون أنها مرافقة ل(لحسن العياشي). وكلاهما من أبناء القرية. كلاهما لفظه القدر، و لِمَ لا نقول: أنقذه من جحيم أكبر يخبئه مع الأيام. ربما أهل القرية كلهم في حاجة إلى من ينقذهم من فراغ داخلي عاناه الجميع نقصانا وحرمانا وخوفا وخصاصا، وعجزا أمام الآخر.

تمر يطو أمام أحد شيوخ القرية القاعدين في استراحة الوجود الجبلية التامالوتية. تكفي التحية مع ابتسامة، وربما تقبيل يد الشيخ. يبارك الشيخ التحية ويرضى عليها ويدعو ويشفق لحال زمنها. الكل يعلم أنها ضحية لشهوة "القايد"، هي وأسرتها. لم يقدر أحدهم على حمايتها من مصير الفرنسي الذي عاشرته لحظة صبا، أو على حمايتها مما صارت إليه أمورها، والتي لا يعلمها إلا القليل منهم. لكن حالها كافٍ للبوح والاستدلال على شقاوة عانتْها. ومَن يستطيع إنقاذها من كل ماجرى إذا كان من ستتمسك به يدها غريق مثلها؟

يوميٌّ تمالوت، القرية، تلاحظ فيه مرور يطو بقفة طويلة ممسكة بها، تساعدها على اقتناء ما جادت به القرية من أكل ومعونة ولباس، وفي اليد الأخرى عصا طويلة استعادت بها استقامة قامتها مع رياضة المشي التي تأخذها ذهابا وإيابا بين المغارة والقرية، حتى إن (مدّهْ) أصبحت عنصرا أساسيا داخل المشهد. فيكفي أن يرى الواحد من سكان القرية (مدّه) لكي يستنج بأن يطو موجودة بالقرية.

عشقها الجديد لتدخين الكيف، جعلها من رواد الفرن الذي استحدثته القرية، والذي جعل البعض منهم يستغني عن الفرن المنزلي التقليدي، لكي يأتي بعجينه المستدير فوق وصلة إلى المعلم الفران. جلسات المعلم كلها عوالم تدخين وحكايات. ما يميزها هو أنها ذكورية، رجالية، سوى ما كان من يطو، فهي الأنثى التي أصبحت رجلا، والتي حافظت على مسافة احترام حذر، لكون قساوة ملامحها دالة على صمود شجرة بين أطنان ثلوج متساقطة على ظلالها

وفروع أغصانها، رغم الانكسارات، لا زالت واقفة. مرةً، سألتها طفلة صغيرة أمام باب الفرن:

. يطو، أنت رجل أو امرأة؟

ما كان منها إلا أن هشت بعصاها لكي تفر الفتاة مهرولة خائفة إلى منزلها.

أصبح حكيها من حكي الرجال، وتدخينها من تدخينهم، ويوميّ عيشها بعض العادات من يوميّهم... أصبح عالم مغارتها عِشرة مع لحسن العياشي. ها هي قد عادت لتأثيث مملكتها من جديد، لاختيار لحظات فرحها وحزنها فيها. أصبح الجميع يعرف قصة وطريقة عيش يطولحسن، ولحسن العياشي. وتمر الأيام والسنون، وينهار البنيان من جديد. يموت لحسن العياشي،. أما يطو، فشيء من دواخلها مات من جديد. لماذا هذه الولادة المتجددة للألم إذا كان الموت حتميتها؟ هل يريدنا أن نستسلم له بطريقة ما؟ بعذاب، بانتحار؟ بماذا يريد التخلص به منا هذا الموت اللعين؟

دموع وحزن، تلقت بهما ومعهما يطو العزاء من سكان القرية ومن رواد الفرن ومن المعلم عبد الرحمن الفران الآتي من المناطق الصحراوية. أية جنة هو الآخر يبحث عنها في تمالوت؟

انكمشت زهرة الغاب من جديد، وهذه المرة ليس فصليا، بل باستمرار. وحرمت أشجار الغاب من رائحة وحركة وصوت وغناء. عادت يطو إلى غربتها الداخلية داخل جنتها تمالوت. ساد الصمت أيامها. لم يعد للمغارة زائر من جديد. خَلَت لبيتها من جديد. ازدادت نحافة وتيبسا وصمتا قويا، إلا ما كان من سعال تجذّرَ متربعا على شجرة رئتيها. يحتج القلب بنبضه المسموع على اكتساح الصمت الجحيمي لفؤاده ومملكته الداخلية. تقوّست القامة فلم تعد متحدية لأعالي السماء بقدر ما بدأت الأرض تجذبها لحنين التراب ولحْدِه.

القريةُ هي أهلُها، معيلها، متفقدتها، مساعدتها من طرف نسائها ورجالها. لا تحتاج لطلب مساعدة، فسيرة أسرة ضحية الزمن، رأت فيها القرية سيرتها الجماعية. كلهم يمكن أن يكونوا بدلها، في حالها. ربما هي قربان الزمن لهذا القدر حتى يقي باقي أفراد القرية نسبيا. ما عادت للشجرة أغصانها المخضرة. عمود يابس يتلقى لفح الريح الزماني الذي انتصر عليها فانحنى مستسلما في معركته معها فوق هذه القمم التي لا تعترف سوى بمعارك الطبيعة في كل الفصول. ها هي يطو وقد دخلت في ستيناتها، كأنها عاشت ستمائة سنة. غار الأمل والشوق والحب خارج قاموسها الشخصي.

ويأتي القدر برجل أجنبي، يقول لها إنه ابنها. فهل هي مستعدة للمفاجئ الجديد؟ هل في استطاعتها ترميم فؤادها المكسور بحروب الزمان والشقاوة؟

لحسن، حدّو، المرساوي، روني... وهذا شارل ذاكرة وجع وألم ومخاض وولادة رسمت لها أشكال موت متعددة بيضاء وسوداء وحمراء ستحسم حربها معها.

بقيت صامتة في زاوية من غرفتها. ترمّد الدمع محترقا وتائها في شقاء الذاكرة. استسلم شارل لقساوة المشهد وصخرية تعابيره. مرت الساعة وتلتها أخرى، لا اقتلاع لكلمة واحدة. انتظر أمومة متفجّرة ومعانقة، لم يجد سوى امرأة هامدة من الحياة. سألها إن كانت تريد شيئا قبل أن يذهب؟

أجابتْه بلمعان عينين عسليتين اكتشفت معه تشابها في النظرتين. الجدران نابت عن يطولسحن في مرافعتها:

(لا مكان لك في هذا الألم وعذابه. يكفي أنني استسغته واصطحبته معي في هذا الوجود. لك الحياة خارج تمالوت، ولي الموت في أحضانها).

ربما لم يدرك بيانها وتضحيتها. انتظر أمومة وحضنا وأبعدته هي من قدر نار متقد في صدرها. ترك لها نقودا فوق الطاولة الخشبية المستديرة وانصرف.

وعود على بدء

هل ناسب هذا الحكي زمن تذكره ونسجه؟ عرض السيد محسن روايته على أصدقاء عمله ومقهاه ورفقة مدينة عمله. فرّت نفوس من رائحة الاحتراق التي اشتعلت بها نفسيات الشخصيات. اشتهت أخرى لحظات المتعة المرسومة دون خيبات الأمل الموضوعة. طاوع بعضهم في موافقة تغيير القدر والمسار وتعديل الإخراج. وانتصر السيد أحمد عضو المجلس البلدي ومعارضته لتأويله السياسي في طلب قراءة الواقع الراهن وهؤلاء الأحياء الذين يغتالهم الاستغلال والتهميش، والبطون التي تحتاج إلى إشباع، كذا الأبدان التي تحتاج إلى علاج والكرامة التي تحتاج إلى رد اعتبار.

سأل الأستاذ ابن عبدالجليل:

ـ أمَا تزال يطولحسن حيّة على قيد الحياة؟

ـ الله أعلم ! إنما أطلب منك استشارة حول العنوان المناسب: تمالوت ـ أوراق التوت المتساقطة ـ جنة يطو لحسن... أي عنوان تراه مناسبا في نظرك؟

""ما يزال حكي يزّة مستمرا. فهي ليست شهرزاد التي كفاها عدد الألف ليلة وليلة كما في الحكاية، لتخرج من جحيمها وتجد مخلصها. جحيم يزّة عُمرٌ ودهرٌ بأكمله مستمر، منتقل من جيل إلى جيل حيث يعشش الحرمان والاستغلال والفقر والجهل وإهانة الكرامة والبيع في سوق النخاسة والنجاسة.

سبحان الله، نقطة فوق الحاء أو تحتها تعطي المعاني المناسبة لسوق جحيم يزّة الفريسة المنسية في الالتهام والافتراس عبر تاريخنا الطويل.""